ابداعات عالمية

قصص

خورخي لويس بورخيس

كتاب الرمل

ترجمة : سعيد الغانمي

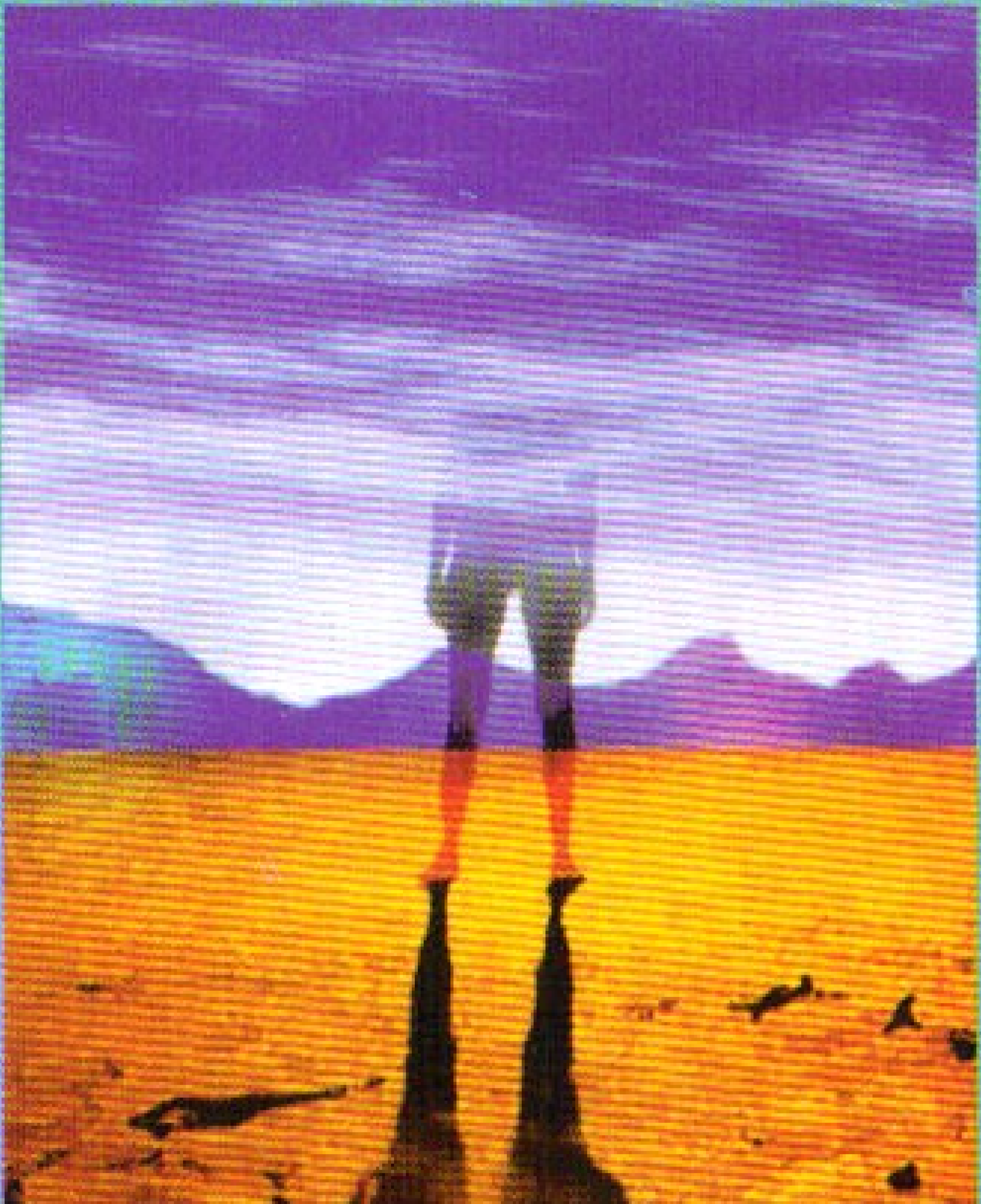

كتاب الرمل

رقم التصنيف : ٨١٣
المؤلف ومن هو في حكمه : خورخي لويس بورخيس، ترجمة سعيد الغانمي
عنوان المصنف : كتاب الرمل، قصص ط٢
الموضوع الرئيسي : ١ـ الآداب
٢ـ القصة المترجمة
رقم الإيداع : (١٧٤١/ ١١/ ١٩٩٧)
بيانات النشر : عمان : دار أزمنة .
*ـ تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية
ISBN 9957-09-009-7 (ردمك)
رقم الإجازة المتسلسل: ٦٣٨/ ١١/ ١٩٨٩

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب:
THE BOOK OF SAND

□ كتاب الرمل: خورخي لويس بورخيس
□ الطبعة الأولى : منارات ، ١٩٩٠
□ الإصدار الثاني: أزمنة® ١٩٩٩
جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق وعقد
أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤
ص . ب : ٩٥٠٢٥٢
عمّان ١١١٩٥ الأردن
شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط ٤

All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in all retrieval system or trasmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

لوحة الغلاف : ييمي ـ شنغ (كوريا)
تصميم الغلاف : أزمنة (الياس فركوح)
فرز وسحب الأفلام : الشروق
الطباعة: شركة الشرق الأوسط للطباعة
تاريخ الصدور : كانون الثاني ١٩٩٩

ابداعات عالمية

قصص

خورخي لويس بورخيس

كتاب الرمل

ترجمة سعيد الغانمي

أزمنة

ولد خورخي لويس بورخيس في بوينس أيرس في ٢٤ آب / أغسطس عام ١٨٩٩. انتقل مع أسرته إلى أوروبا عام ١٩١٤، ليلتحق بمدرسة في جنيف حتى عام ١٩١٩، حيث تعلم الفرنسية والألمانية واللاتينية وكان قد أتقن الانكليزية عن طريق جدته ذات الأصل البريطاني. ثم أمضى عامين في إسبانيا قبل أن يعود عام ١٩٢١ إلى الأرجنتين، ويشرع هناك في كتابة قصائده التجريبية الاولى.

أنشأ مع مجموعة من أصدقائه المهتمين بالشعر الطليعي حركة أدبية عرفت بـ (ULTRA ISMO) كانت تعمل على تطوير شكل شعري يتصف بتتابع السطور. وفي عام ١٩٢٣ أصدر أول كتاب شعري له تحت عنوان: حماس بوينس آيرس، حيث تجلت فيه اتجاهاته تلك.

عمل بورخيس مديراً للمكتبة الوطنية في بوينس آيرس منذ العام ١٩٥٥، ثم استاذا للأدب الانكليزي في جامعتها. كما شغل منصب استاذ الشعر في جامعة هارفرد في الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٦٧. وقام بإلقاء العديد من المحاضرات حول الأدب الأرجنتيني في جامعات الولايات المتحدة وأوروبا.

حظي أدبه المتفرد باهتمام وتقدير كبيرين، ومن مختلف الشعوب، فقد تقاسم مع صموئيل بيكيت جائزة الناشرين الدولية عام ١٩٦١. ومنح درجة الدكتوراه في الآداب عام ١٩٧٠ من جامعتي كولومبيا واكسفورد. كذلك منحته جامعة السوربون الفرنسية دكتوراه فخرية. وقد تتوج ذلك كله في العام ١٩٨٠ حين تسلّم في مدريد جائزة سرفنتيس للآداب، وهي أرفع جائزة ثقافية في العالم الناطق بالاسبانية.

لم يكتب بورخيس رواية واحدة. ومع ذلك فإن كتبه الثلاثين في القصة القصيرة والمقالة والشعر تعد من أثرى المؤلفات خيالاً، ومن أعمقها أثراً، وأشدها إثارة لمكنونات النفس البشرية. وقد كان ملهمه في كتاباته تراث الانسانية كافة، شرقيها وغربيها ، بكل تنوعه وتناقضه وبحثه، ولطالما تحدث عن تأثره بكتاب «ألف ليلة وليلة» وكتب التاريخ العربي. وكان خياله الجامح يجعل من كل هذه الثقافات مادة خاماً يخضعها لطاقتي الحلم والذاكرة، ليؤسس منها، عبر لغة شديدة الكثافة والتحديد أدبه الخيالي، والأصيل.

اعتبره النقاد أحد أهم المؤثرين في أدب أكيركا اللاتينية وأدبائها، من أمثال كورتثار، ماركيز، فونيتس وغيرهم.

من أشهر أعماله: متاهات ـ تقرير الدكتور برودي (صدر بالعربية عن دار الشؤون الثقافية في العراق ١٩٨٨ من ترجمة نهاد الحايك) ـ تاريخ عالمي لسوء السمعة ـ كتاب الموجودات المتخيلة ـ الألف ـ كتاب الرمل وغيرها.

توفي بورخيس عام ١٩٨٥ عن ٨٦ عاماً في جنيف التي عاش فيها زمن فتوته الأولى، والتي قدِم إليها قبل وفاته بأشهر قليلة وأوصى أن يدفن فيها.

بورخس
لعبة التفسيرات الغامضة

بقلم: سعيد الغانمي

كتب «نوفاليس»: «حين نحلم أننا نحلم، فهذه بداية اليقظة».تضعنا كلمة نوفاليس هذه في قلب الرؤية البورخيسية.

إن أرض بورخس هي الحلم والوهم واللايقين. كل شيء لا يؤدي الى شيء. انني أحلم بنفسي في زمان ومكان آخر، وفجأة اكتشف أنني أحلم. هكذا يبعثر الحلم الحلم، ويذبحه باكتشاف الحلم المضاد.

قال بورخس مرة «قيض لي أكثر من مرة أن أقرأ ترجمة أنطوان غالان لألف ليلة وليلة. اكتشفت أشياء كثيرة لكنني حلمت بشيء واحد، هو أن أملك بساطا سحريا، ينقلني الى كل الأمكنة والى كل الأزمنة، لم يكن تحقيق هذا ممكنا فأطلقت لخيالي العنان».

أن أحلم بأحد قد يكون أن يحلم بي. وقد يظن كلانا أنه الحالم ـ كما يقول بورخس في قصة «الاخر» ـ وربما توقفنا عن الحلم وربما واصلناه.. وواجبنا في الوقت نفسه أن نقبل بالحلم تماما كما نقبل بالعالم، وبأننا نولد ونرى ونتنفس. إن إعادة فحص الحلم هي نوع من نظرية معرفة مضمرة تنطوي عليها أعمال بورخس. فبورخس على حد تعبير غالغز ـ كان «فيلسوفا هاويا طيلة حياته وأعماله مليئة بالأفكار». إن أفكاره تعري المعرفة البشرية وتفضح غرورها عندما تكشف عن الهوة الفاصلة بين الكلمة والمعرفة واللايقين.

بين شخصيات بورخس المفضلة اثنان عرفا بالمثالية الذاتية: باركلي وشوبنهور. وليس اختيار بورخس لهما بعبث. إن بورخس لا يختارهما لكي يثبت أناه بل ليضيعها. ففي فلسفة باركلي يتحول كل شيء الى إدراك، فالشيء هو

المدرك، وما يختفي عن الادراك هو احتمال ونفي وافتراض. فالشيء لا يكون هناك الا بقدر ما تسقط عليه حواسي، وهكذا فإن باركلي ينفي العالم لتتسع ذاته أو ليحوله الى لغة رمزية يتحدث بها كائن مطلق. انه في النهاية يؤكد ويطمئن ويريح، ولو بفضل العودة الى الحس أو المطلق. وقد وجد ميرلو بونتي في ذلك تمجيدا للادراك الحسي واطمئنانا أولياً ببراءة الحواس، وإستباقها لكل منطق. أما شوبنهور فقد امتص العالم لينفخ ذاته، وليجد نفسه أخيراً في الفرد والعبقري وإنسان نيتشه المتفوق.

بورخس يبدأ معهما من النقطة نفسها، ولكنه ينتفض عليهما. ذلك أن مثاليته الذاتية لا تؤدي الى ذات. انه يدرك أن الواقع تصور وإمتثال وإدراك، ولكنه لا يستطيع ان ينتهي الى يقين يطمئنه على هذا التصور والامتثال والأدراك، وأنهما فيض ذاته، لأنه يجد ذاته دائماً في حالة هرب. انها تختفي دائماً وراء ذات أخرى، وتختفي تلك الذات الاخرى وراء تسلسل من الذوات الأخر. في قصة « الآخر» يجد بطل القصة ـ واسمه بورخس ـ نفسه في كامبرج عام ١٩٦٩ أمام بورخس آخر في جنيف عام ١٩١٤ وكان عليه أن يبذل جهداً لأقناع الاخر أنه بورخس، وفي النهاية يقول: «فكرت كثيرا في ذلك اللقاء الذي لم أروه لأحد. واعتقدت أنني وجدت المفتاح. كان اللقاء حقيقيا أما الآخر فكان يحلم عندما تحاور معي. وهذا ما يفسر نسيانه لي. لقد تحدثت معه في اليقظة وما تزال ذكراه تنغصني».

إذا لم تكن مثالية بورخس ذاتية، فماذا تكون؟ هل هي مثالية أفلاطون الموضوعية، أم مثالية «كانت» المتعالية؟ ان بورخس يعلن صراحة ضجره من مثل أفلاطون، كتب يقول: «في تلك المجالات الفكرية لا أستطيع التعبير عن أية فكرة، ولا أعتقد أن أي فرد قادر على حدسها دون مساعدة الموت أو الحمى أو الجنون». وقد أشار غالغر معلقاً «في النهاية لا يمكن تدقيق أية فرضية عن الحياة الأخرى دون زيارتها». وحتى لو زارها بورخس فإنه لن يؤمن. في قصة «الآخر» يستشهد بورخس بواحد من خيالات كولردج: «وعلى حين غرة تذكرت واحداً من خيالات كولردج: شخص ما يحلم بأنه يقوم برحلة في الجنة، فتقدم له زهرة، وفي اليقظة يجد الزهرة في يده». فيلجأ بورخس الى الحيلة نفسها، يطلب من الآخر قطعة نقود ويعطيه دولاراً. وفي اليوم التالي يكتشف أن الآخر كان يحلم بالتاريخ المكتوب على ظهر الدولار. ان شك بورخس يستوعب كل شيء حتى ذاته، وهكذا

يتطاير منه كل شيء حتى الشك نفسه. . انه لا يعلم ما إذا كان شكه شكاً أم حقيقة. . ولذلك فهو لا يستطيع أن يؤمن بذات متعالية. انه عار ومجرد مثل هندي أحمر. وهو أقرب الى شتراوس الذي كان يأخذ من « كانت» تعاليه دون أن يؤمن بالذاتية.

بورخس وشتراوس. . كلاهما كان يبحث عن النموذج الجديد وآمن كلاهما بضعف الأشياء. ولكن شتراوس لا يعرف قلق الروح. فلم يجرب ذلك الضياع الفكري في اللاشيء. انه يجد راحته أخيراً في أنتروبولوجيا بلا ذات، وفي لعبة المكعبات البنيوية المتعالية.

بورخس لا يستطيع أن يؤمن بالعلم لأنه لا يستطيع أن يؤمن بأي شيء حيث يفيض غرور المعرفة البشرية عن لا نهائية لعبة التفسيرات الغامضة وحيث يكون كل شيء ممكناً «فاذا كنت «لا تعلم» بوجود العالم أو من هو بورخس فإنك «لن تعلم» أن علامات أحشاء النمر الأميريكي ليست برسالة سرية من الله».

ثمة شبه آخر بين بورخس وشتراوس. وهو اهمال التاريخ، فالتاريخ عند شتراوس دائم الغياب وملغي تماماً. انه يتعلق بما لا تاريخ له بكل معنى الكلمة. فالمهم هو العلاقات بين الأشياء وليس الأشياء نفسها. . إن التاريخ عنده هو الخلفية الميتة التي لا تلقي ظلاً ولا تفسر. كتب شتراوس في «العقل البرّي»: «ان التاريخ ليس أبداً لذاته، بل التاريخ بالنسبة لنا أو لي. . . » وكذلك بورخس الذي لا يعود التاريخ عنده سوى أسلوب لمعالجة الواقعة الآن. فإذا كان الزمان لا نهائياً فإنه دوريّ.جاء في قصة «كتاب الرمل»: «إذا كان الزمان لا نهائياً كنا عند أية نقطة في الزمان». والابتداء من نقطة معينة يعني أن الزمان يتكرر. انه الإعادة المتواصلة للنقاط نفسها، يمكن لبورخس عام ١٩٦٩ أن يلتقي ببورخس عام ١٩١٤ دون أن يشعر باختلال الزمان، انه الشاهد على الزمان بدلا من أن يكون الزمان شاهداً عليه. وفي قصص بورخس جميعاً تتكرر لازمة التذكر المتردد نفسها. جاء في قصة «ليلة الهبات»: «لقد انقضت السنون ورويت هذه القصة عشرات المرات، ولست أدري ما إذا كنت أتذكرها كما هي أم أنني أتذكر كلماتي فقط».

إن لقلق بورخس وريبته الدائمة وظيفة إيجابية في فنه الأدبي، لأنه حين يخفق معرفياً فإنه ينجح فنياً. فالشك في كل شيء هنا شك فعاّل، ولا يكتفي بالمتاح

والمعطى بل هو في حالة بحث متواصل ولا يستطيع أن يرضى بأيّ نموذج، وهذا ما يفتح خياله لاستقبال النماذج الفنية والثقافية والمعرفية الجديدة باستمرار. كل نموذج بالنسبة له هو وضع شك، ولهذا فإن أي نموذج مكتشف هو نموذج قديم.. وهكذا يبقى في حالة بحث مستمر. إن البحث هنا يكتسب قيمة أعلى وأبعد من قيمة النموذج الموجود، وبورخس يحاول دائما أن يبقي على خياله في حالة إنذار مثل نمر جريح يترصد. وهذا ما يجعله السياف والضحية في وقت واحد، لأن هذا الشك واللايقين إذ يخلصه من الاطمئنان الى أي نموذج أليف ويؤدي به الى البحث الدائب عن اشكالية النماذج الممكنة، فهو في الوقت نفسه يكون «نموذجه» المتكرر بحيث يصبح الشك نتيجة معرفية بدلا من أن يكون وسيلة فنية، وذلك ما يجعل قصص بورخس تنطوي في النهاية على الإرتياب واللايقين والتكرار والمتاهة كقيم ثابتة وليس كأشكال فنية.

لعبة المرايا هي وسيلة بورخس الأولى. إنّ الصورة المنعكسة في المرآة تعكسها مرآة أخرى. وهكذا تتسلسل الصور. إنّ هذه اللعبة القديمة لا تشكل مصدراً للرجوع الى الموروث القديم أو صهر الزمن الميت في الزمن الحي فقط، بل إنها تؤدي على المستوى المعرفي الى حالة التحول المتواصل في تسلسل الذوات وإحالتها المستمرة الى غيرها. إن بورخس دائما غير موجود.. إنّ ذاته تحيلنا دائماً الى ذات أخرى، وتحيلنا الذات الأخرى الى غيرها، أو كما يفضل بورخس أن يسميها «الأنا الغيرية» حيث يكون المرء راصداً ومرصوداً. وهذا ما ينتهي بالمحاولة الى الشك والارتياب.

من الطبيعي أن الزمن سيتغير معناه في هذه الحالة.. انه لا يعود مجرد منظر خلفي ثابت مع تغير الشاهد، فهو ينتقل من الزمن المحدد الى الزمن المجرد، أي من الزمن الضيق نحو الأبدية الواسعة، وفي «يوتوبيا رجل متعب» جرب بطل القصة كيف ينتقل من القرن الذي يعيش فيه الى مئات القرون في المستقبل وعندما التقى برجل المستقبل أخبره هذا أنهم يحاولون أن يعيشوا من وجهة نظر الأبدية.

ولكن بورخس يريد لقصصه أن تكون حقيقية. ولذلك فهو يدس في قصصه جميعا وقائع من حياته الخاصة، أو في الأقل، وقائع تاريخية من حياة سواه. وهو يؤكد على أن هذه القصص حقيقية رغم غرائبيتها.. انها قصص حقيقية بمعنى أنها

تتضمن تجربة ذهنية أو باطنية ، وليس بمعنى احتوائها على مشكلة عينية ، رغم أن بورخس لا يتورع عن أن تكون لقصصه ثيمات جانبية بالاضافة الى الثيمة الرئيسية .

الآخــر

حدث ذلك في كامبرج، في شباط ١٩٦٩. لم أقم بأية محاولة لتدوينه في ذلك الوقت، فقد كان هدفي آنذاك أن أتناساه، خشية على عقلي. والآن وبعد انقضاء سنوات أشعر أنني لو سجلته على الورق، فإن الآخرين سيقرأونه كقصة. وانني لأرجو أن يتحول، يوما ما، الى مجرد قصة بالنسبة لي أيضا.

أعرف أنه كان مرعباً عندما وقع ـ وكان أكثر رعباً في ليالي الأرق التي أعقبته ـ لكن هذا لا يعني أنّ رواية ما حدث ستهز كل شخص آخر بالضرورة.

كانت الساعة حوالي العاشرة صباحاً. كنت جالساً فوق أحد المقاعد التي تطل على نهر «تشارلز». وعلى مبعدة خمسمائة ياردة الى اليمين مني تشخص إحدى البنايات العالية التي لم أعرف إسمها قط. كانت المياه الرمادية تدفع الطوف الجليدي. وقد دفعني ذلك الى التفكير بالزمن ـ صورة هيراقليطس قبل الف عام. لقد أخذت قسطا وافرا من النوم، وكنت أفكر أنّ محاضرتي في عصر اليوم السابق قد استقطبت اهتمام طلابي. وعلى مرمى البصر لم تكن ثمة نأمة أبداً.

فجأة تولّد عندي انطباع (والانطباع يعتمد على حالة التعب حسب ما يقول علماء النفس) بأنني قد عشت تلك اللحظة مرة من قبل. جلس شخص ما على حافة المقعد الأخرى. كنت أفضل البقاء وحيداً، لكنني خشية الظهور بمظهر الانعزالي فضلت أن أتجنب النهوض المفاجىء. ثم شرع الرجل الاخر بالصفير، وكان ذلك إيذانا بأول الأشياء المزعجة في ذلك الصباح، صفيره، أو ما كان يحاول أن يصفره (أذني ليست موسيقية) كان نغمة «لاتابيرا» القديمة «لإلياس ريغوليس». أعادني لحنه الى فناء دار معينة في بوينس أيرس اختفت منذ زمن بعيد، وأيقظ في ذهني ذكرى إبن عميّ «الفارو ميليان لافينيور» الذي قضى منذ سنوات عديدة. ثمّ

أخذنا بأطراف الأحاديث. لم يكن الصوت صوت الفارو، بل تقليدا له. ما ان تبينته حتى انتابني الفزع.

قلت ملتفتا الى الرجل الآخر «سيدي هل أنت من الأرغواي أم أرجنتيني؟».

أجاب «أرجنتيني، لكنني أعيش في جنيف منذ عام ١٩١٤».ساد بيننا صمت طويل، ثم سألته:

«في شارع مالاغنور رقم سبع عشرة، قرب الكنيسة الأرثوذكسية؟»

رد بالإيجاب.

قلت بلا تردد «في هذه الحالة، فإنّ إسمك خورخه لويس بورخيس. أنا أيضا خورخه لويس بورخيس. والعام الآن هو ١٩٦٩، ونحن في مدينة كامبرج».

«كلا» قالها بصوت هو صوتي، ولكنه بعيد قليلا.

صمت هنيهة ثم عاد ليؤكد:

«بل أنا هنا في جنيف فوق مقعد على بعد خطوات من «الرون» والغريب في الأمر أننا متشابهان، ولكنك أكبر سنا بكثير، وشعرك أشيب».

قلت: «أستطيع أن أثبت لك أنني لا أكذب. سوف أخبرك بأشياء لا يمكن لغريب أن يعرفها. في بيتنا قدح فضي له قاعدة على شكل ثعابين مضفورة، وقد جلبه جدنا الأكبر من بيرو. وهناك ايضا طشت فضي كان يتدلى من سرجه. وفي خزانة الثياب في غرفتك صفّان من الكتب: المجلدات الثلاث من الف ليلة وليلة طبعة «لين» بنقوش معدنية وملاحظات مكتوبة بخط دقيق في نهاية كل فصل، ومعجم «كوبتشرات» اللاتيني، وجرمانيا «تاسيتوس»باللاتينية، وترجمة غوردن الانكليزية، وطبعة غارنيه من «دون كيشوت» وكتاب «ألواح الدم» لريفيرا اندراته الذي يحمل اهداء مؤلفه، و «الخياط وقد أعيدت خياطته» لـ «كارلايل»، والسيرة الذاتية لـ «أميل». ويختفي وراء بقية المجلدات مجلد ذو غلاف سميك عن العادات الجنسية في البلقان .ولست ناسيا أيضا إحدى الأماسي في الطابق الثاني في ساحة دوبورغ »

صحح لي: «دوفور».

«حسنا دوفور. هل يكفي هذا الآن؟»

قال: «لا. هذه البراهين لا تدل على شيء. إذا كنت أحلم بك، فإن من الطبيعي أن تعرف ما أعرف. والملف الذي تقدمه على طوله عديم الفائدة تماماً».

لقد أصاب في اعتراضه عليَّ. قلت:

«إذا كان هذا الصباح وهذا اللقاء حلمين، فعلى كلينا أن يظن أنه الحالم. وربما توقفنا عن الحلم، وربما واصلناه. وواجبنا الجلي، في الوقت نفسه، هو أن نقبل بالحلم تماما كما نقبل بالعالم وبأننا نولد ونرى ونتنفس».

«واذا استمرَّ الحلم»؟ قال بجزع.

ولكي أهدئه وأهدىء نفسي تظاهرت باطمئنان لم أكن أشعر به، قلت:

«لقد دام حلمي سبعين سنة الآن. على أي حال، ليس هناك من لا يجد نفسه مع نفسه في اليقظة. وهذا ما يحدث لنا الآن ـ عدا أننا اثنان. ألا تريد أن تعرف شيئا عن ماضيَّ الذي هو المستقبل الذي ينتظرك؟».

وافق دون أن ينبس بكلمة. فواصلت بشيء من الشرود:

«أمي بصحة جيدة، وهي بخير في بيتها في كاركاس ومايبو في بوينس آيرس. أما أبي فقد مات منذ ثلاثين سنة. مات بنوبة قلبية. قضى عليه الشلل النصفي. كانت يده اليسرى فوق يده اليمنى مثل يد طفل في يد مارد. مات توّاقاإلى الموت ولكن دون شكوى. كانت جدتنا قد ماتت في البيت نفسه. قبل نهايتها ببضعة أيام دعتنا جميعا سوية وقالت: «انني امرأة عجوز أموت موتا بطيئا، بطيئا جداً، فلا يكترث أحد لهذا الشيء اليومي العادي». أختك نورا تزوجت ولها طفلان. بالمناسبة كيف حال الجميع في البيت؟»

«حسنة جداً. ما يزال والدي يمزح بنكته المارقة ضد الدين. أمس قال أن المسيح كان من الذين لا يريدون أن يورطوا أنفسهم، ولهذا فقد كان تبشيره بالامثال». تردد قليلا وقال «وأنت؟».

«لا أعرف عدد الكتب التي ستكتبها. لكنني أعرف أنها ستكون كثيرة جدا. ستكتب قصائد تمنحك متعة لن يشاركك بها الآخرون، وقصصا ذات طبيعة فنطازية الى حد ما، ومثل أبيك وآخرين في عائلتنا ستقوم بالتعليم».

سرني أنه لم يسأل عن نجاح كتبه او إخفاقها. غيرت نبرة حديثي وواصلت:

«أما عن التاريخ، فقد اندلعت حرب أخرى بين الخصوم أنفسهم تقريبا، لم تلبث فرنسا أن سقطت بها.

كانت انكلترا وأمريكا تحاربان ضد دكتاتور الماني إسمه هتلر في معركة واترلو الدورية، بوينس آيرس أنجبت (روساس) آخر في حوالي عام ١٩٤٦ كان يحمل

شبهـا معقولا بقريبنا. في عام ١٩٥٥ هبتّ مقاطعة قرطبة لنجدتنا، كما أنجدتنا أنتري ريوس في القرن الماضي. الأحوال تسوء. روسيا تهيمن على العالم. أمريكا تتخبط بخرافة الديمقراطية، دون أن تعتزم التحول إلى امبراطورية. ومع كل يوم يمر يصبح بلدنا أكثر ريفية. أكثر ريفية، وأكثر غروراً، وكأن عينيه مغمضتان، ولن يدهشني استبدال تعليم اللاتينية في المدارس بلغة «غواراني»★

كنت أعلم أنه قلما كان يصغي لي، فقد انتابه الخوف مما هو مستحيل ولكنه مع ذلك واقع. وأنا الذي لم أكن أباً يوما ما شعرت بالحب العارم لذلك الصبي البائس أكثر مما لو كان من صلبي حقاً.

حين رأيته يتشبت بكتاب بين يديه سألته عنه فأجاب ببعض الزهو: «الممسوسون» أو باعتقادي «الشياطين» لفيدور دوستويفسكي.

«لقد تلاشى من ذاكرتي. وكيف وجدته؟»

ما كدت أقول ذلك حتى انتبهت أن هذا السؤال كان تطاولاً.

قال: «المعلم الروسي. لقد نفذ الى متاهة الروح السلافية أفضل من أي شخص آخر سواه». بدا لي هذ الاستناد الى البلاغة برهانا على استعادته هدوءه. سألته عن الأعمال الأخرى التي قرأها للمعلم. فذكر اثنين أو ثلاثة كان بينها «المزدوج». ثم سألته ما إذا كان يميز أثناء قراءته بين الشخصيات، كما تميز بين شخصيات كونراد، وما إذا كان قد فكر في مواصلته دراسة أعمال دوستويفسكي.

أجاب بشيء من الدهشة: «في الحقيقة لا».

سألته عما كان يكتبه، فقال أنه يؤلف مجموعة من القصائد ربما سمّاها «تراتيل حمراء»★، وقال أنه يفكر بتسميتها إيقاعات أيضا.

قلت: «ولم لا. تستطيع أن تستشهد بالجيد من السابقين، القصائد الزرقاء لروبين داريو، والأغنية الرمادية لفيرلين».

شرح لي، وهو يتجاهل ما قلت، أن كتابه يحتفل بأخوة الانسان. فالشاعر في زماننا لا يستطيع أن يدير ظهره لعصره. فكرت قليلا وسألته ما إذا كان حقا يشعر بالاخوة نحو الجميع، نحو متعهدي دفن الموتى، نحو سعاة البريد، ومن يغوصون

★ احدى لغات قبائل الهنود الحمر في امريكا الجنوبية. (المترجم)

★ من أوائل الكتب التي ألفها بورخس والتي لم تنشر أبداً هو ديوان يضم مجموعة قصائد متطرفة تتغنى بالثورة الروسية. قام بجمع بعض هذه القصائد المتفرقة «كير مودي توري».

في أعماق البحار، ومن عاشوا فيها لا يحصى من الطرقات ومن لا صوت لهم. فأجاب بأن كتابه يتناول الجمهور الأعظم من المضطهدين والمنبوذين.

قلت: «إن جمهورك من المضطهدين والمنبوذين ليس سوى تجريد. فلا يوجد سوى الافراد، إذا كان ثمة من يوجد. «وإنسان الأمس غير إنسان اليوم» ـ كما قال احد الإغريق ـ وربما كنا نحن الجالسين على هذا المقعد في جنيف أو كامبرج دليلا على ذلك».

الأعمال المشهودة لا تحتاج الى عبارات مشهودة، إلا في الصفحات الدقيقة من كتب التاريخ الصارمة. ففي لحظة النزع الاخير يحاول الانسان أن يستعيد صورة انطبعت في ذهنه منذ الطفولة. وحين يدخل الجنود في معركة فإنهم يتحدثون عن الوحل أو عن عريفهم. لقد كان وضعنا فريداً، وبصراحة لم نكن مهيأين له. فقد تحدثنا عن الأدب، وأخشى أنني لم أزد على ما أقوله للصحفيين في العادة، كان «أنا الآخر» يؤمن باختراع إستعادات جديدة أو اكتشافها، فيما كنت أؤمن بتلك الاستعارات التي تحمل شبها حميما واضحا، الاستعارات التي ارتضاها خيالنا سلفاً: الشيخوخة، والغروب، الأحلام والحياة، إنسياب الزمن والمياه. طرحتُ عليه هذا الرأي، الذي سيعرضه في كتاب بعد سنين. لم يكن يصغي إلي تماماً، فجأة قال:

«لو كنت أنت أنا، فكيف تفسر نسيانك لحقيقة انك التقيت بمن أخبرك عام ١٩١٨، أنه كان بورخيس أيضاً؟»

لم أفكر في هذه الصعوبة من قبل. فأجبته بغير قناعة:

«ربما كان حديثا غريبا الى حد أنني فضلت نسيانه».

غامر بالسؤال على استحياء:

«كيف حال ذاكرتك؟»

أدركت أن رجلا نيّف على السبعين هو رجل مقبور بالنسبة لشاب لم يبلغ العشرين. قلت: «انها تشارف على النسيان، لكنها ما تزال تجد ما يراد لها أن تجده. إنني أدْرُسُ الانكليزية القديمة ولست في آخر السلّم».

وامتد بنا الحوار، حتى تجاوز حدود الحلم، وفجأة خطرت لي فكرة، قلت: «أستطيع أن أبرهن في الحال أنك لا تحلم بي. أصغ جيدا الى هذا البيت الذي لم تقرأه البتة على حد علمي:

الهيدرا الكونية تتلوّى بجسدٍ تغطيه النجوم★.

★ البيت في الأصل بالفرنسية.

شعـرتُ بالرهبة المروّعة التي انتابته. كرّر البيت بصوتٍ خفيض متذوقا ألق كل كلمة. ردّد:

«صحيح. لن أقدر على كتابة بيت كهذا».

لقد وحّد بيننا فكتور هيجو.

وانني لأتـذكـر الآن أنه كان قد استشهد قبل ذلك بقطعة لويتمان يتذكر بها الشاعر ليلة قضاها على البحر، وكان سعيداً بحق. وعلقت عليها: «إذا كان ويتمان يحتفل بتلك الليلة، فذلك لأنه تمناها ولم تحدث، فهذه القصيدة تبدو تعبيراً عن حنين لا سرداً لحدث»

حدق بي فاغراً فاه ثم هتف: «أنت لا تعرفه. ويتمان لا يكذب».

إن نصف قرن لا ينقضي عبثـاً. لقـد أدركت من خلال نقـاشنا عن الناس والقراءات المتنوعة، وأذواقنا المختلفة أننا غير قادرين على فهم بعضنا بعضا. فقد كنا متشابهين جداً، ومختلفين جداً. لم نتمكن من خداع بعضنا مما جعل الحوار بيننا صعباً. كان كلانا نسخة كاريكاتيرية للآخر. وكان مستحيلا علينا أن نستمر فترة أطول. واستعصى عليَّ إسداء النصح له، ذلك أنه وبطريقة لا يمكن تجنبها كان مقدراً له أن يصبح الشخص الذي هو أنا.

وعلى حين غرة، تذكرت واحداً من خيالات كولردج. شخص ما يحلم بأنه يقوم برحلة الى الجنة، فتقدم له زهرة. وفي اليقظة يجد الزهرة في يده. فخطر لي أن أقوم بالحيلة ذاتها.

قلت: «اسمع هل معك نقود؟»

أجاب: «نعم لدي حوالي عشرين فرنكاً. لقد دعوت سيمون جيشلنسكي الى مطعم (التمساح) الليلة».

«أخبر سيمون أنه سيمارس الطب في كاروج، وأنه سينجح في عمله. والآن أعطني قطعة نقود».

أخرج ثلاث قطع فضية كبيرة وبعض القطع الصغيرة. ودون فهم منه قدم لي قطعة نقد من الفئة الاولى وأعطيته واحداً من الدولارات الأمريكية ذات الحجوم المتساوية والقيم المتفاوتة جداً. تفحصها باهتمام بالغ.

قال بصوت مرتفع: «لا يمكن إنها تحمل تاريخ ١٩٦٤*. هذه معجزة. والمعجز مخيف. لا بدَّ أن شهود بعث لعازر ارتعبوا».

فكرت في نفسي أننا لم نتغير البتة. دائما الرجوع الى الكتب، مزق الورقة النقدية، ووضع القطع المعدنية في جيبه. وقررت أنا أن أرمي قطعتي الى النهر. وكان على قوس القرص الفضي الكبير لقطعة النقود، وهو يتلاشى في النهر الفضي، أن يضفي على قصتي ألقاً حياً. لكّن سوء الحظ لم يرد ذلك. قلت له أنّ غير الطبيعي، إذا تكرر أكثر من مرة لا يعود مرعباً. واقترحت أن نلتقي في اليوم التالي، على المقعد نفسه الموجودفي زمانين ومكانين مختلفين. وافق في الحال. ودون أن ينظرالى ساعته قال انه تأخرّ. كلانا كان كاذباً. وكان كلانا يعرف كذب الأخر. أخبرته أن أحدهم سيأتي ليأخذني.

قال: «يأتي ليأخذك؟».

«نعم حين تبلغ عمري، ستفقد بصرك تقريبا. سترى الألوان صفراء والأضواء، والظلال، لا تخف. إن العمى التدريجي ليس مأساة. إنه كغسق صيف بطيء».

إفترقنا دون أن نتصافح. في اليوم التالي لم أحضرْ، ولا بدَّ أن الآخر لم يحضر أيضاً. فكرت كثيراً في ذلك اللقاء الذي لم أروه لأحد. واعتقدت أنني وجدت المفتاح. كان اللقاء حقيقياً. أما الأخر فكان يحلم، عندما تحاور معي. وهذا ما يفسّر نسيانه لي. أما أنا فقد تحدثت معه في اليقظة وما تزال ذكراه تنغصني.

لقد حلم بي الآخر، ولكنه لم يحلم بي تماماً. لقد حلم وهذا ما أدركه الآن، بالتاريخ المكتوب على ظهر الدولار.

---

* «حول هذه الملاحظة التي اوردها الكاتب عن العملات الورقية الاميركية (الدولارات) جرى حوار في مدريد حيث أخبرته ان ملاحظته الاولى حول تاريخ الاصدار صحيحة وذلك لانّ العملات الورقية الاميركية تحمل تاريخ الاصدار، وانّ الخطأ وقع فيما بعد من خلال الذين ابلغوه بعدم وجود تاريخ الاصدار. لم يفاجأ بورخيس لهذا الاكتشاف وحاول اقناعي ان الامر كله كان مجرد دعابة غامضة، وانه اراد من خلال هذه القصة مزج الحلم بالواقع» عن (ماركوس ريكاردو بارناتان) (المترجم).

«تناول السيف ووضعه بينهما مجرداً»
ساغا الفولسنغ، ٢٩

أولريكا

ستكون هذه القصة وفية للحقيقة أو على أية حال وفية لما أتذكره من الحقيقة، وكلا الأمرين واحد. لقد جرت أحداثها قبل فترة وجيزة ولكنني اعلم ان العادة الأدبية تعني إدخال التفاصيل الظرفية والتوكيد على ما يحتاج الى توكيد. إنني أريد أن أقدم صورة عن لقائي بـ «أولريكا» (التي لم أعرف لقبها، وربّما لن أعرفه أبداً)، في مدينة يورك. وستشتمل هذه القصة على ليلة واحدة وصباح واحد فقط.

قد يكون من السهل القول بأنني رأيتها للمرة الأولى عند «الأخوات الخمس» في «يورك»، ذات النوافذ الملطخة الزجاج، التي لا تعكس صورة أحد. ولكن الحقيقة أننا التقينا في ردهة صغيرة في النزل الشمالي خارج أسوار المدينة. كنا عدة أشخاص وقد أدارت أولريكا ظهرها لنا. قدّم أحدهم لها شراباً فرفضته.

قالت: «إنني أنثى، ولا أميل الى تقليد الرجال، فأنا أكره تبغهم وكحولهم».

كانت ملاحظتها تحاول أن تكون ذكية.وخمنت انها لم تكن المرة الاولى التي تنطق فيها بهذه الملاحظة، ولكنني اكتشفت فيما بعد أنها ليست احدى صفاتها الشخصية فما نقوله لا يشبهنا بالضرورة. ذكرت أنها وصلت المتحف متأخرة، ولكنهم سمحوا لها بالدخول عندما علموا أنها نرويجيّة.

علق أحد الحاضرين: «ليست هذه المرة الأولى التي يدخل فيها النرويجيون الى يورك».

ردت: «هذا صحيح. فقد كانت إنكلترا ذات مرة لنا، ولكننا فقدناها، إذا كان لأحد أن يمتلك شيئا أو يضيعه».

وهنا نظرت اليها. ثمة بيت شعر لبليك يتحدث فيه عن فتيات مجبولات من لجين معتدل، أو ذهب غاضب. أمّا أولريكا فقد كانت الذهب والاعتدال معاً.

كانت هيفـاء طويلة، بملامح حادة، وعيون رمادية. لقد أسرني وجهها أكثر مما أسرتني هيئتها الموحية بسر هادىء. كانت تبتسم بيسر، وبدت ابتسامتها تبعدها عن الآخرين. وكانت تتشح بالسواد، وهو لبس غريب على أهل الشمال الذين يحاولون أن يفعموا ألوان البيئة المطفأة بألوان حيوية. كانت تتحدث الانكليزية بطلاقة، محاولة أن تجهر بالراءات بنعومة. لقد اكتشفت هذه الأشياء بالتدريج، إذ لست براصدٍ جيد.

تعارفنا. وقلت لها أنني كنت أستاذا في جامعة أندز في بوغوتا. وأوضحت لها أنني كنت كولومبيّاً.

سألتني بأسلوب تأملي: «ما معنى أن تكون كولومبيّاً؟».

أجبت: «لا أعرف. إنها مسألة معتقد».

فقالت: «مثلما تكون نرويجياً».

هذا كل ما أتذكره مما قيل تلك الليلة.

في اليوم التالي نزلت الى غرفة الطعام مبكراً. ومن خلال النافذة رأيت أن الثلج كان قد تساقط بغـزارة. لم يكن ثمـة أحد سوانا. فدعتني أولريكا الى طاولتها. وأخبرتني أنها تحب أن تخرج للتجوال وحيدة: فتذكرت واحدة من نكات شوبنهور وقلت:

«وكذلك أنا. بإمكاننا أن نخرج سوية».

خرجنـا من النزل، ومشينا فوق الثلج المتساقط حديثاً. ولم تكن ثمة نأمة، فاقترحت أن نذهب الى «ثورغيت» على بعد بضعة أميال من النهر. كنت أعرف أنني قد بدأت بحب أولريكا، فرغبت أن أكون وحيداً معها.

ثم بغتة سمعت عواء ذئب بعيد. لم أسمع قبل ذلك ذئباً يعوي، ولكنني عرفت أنـه كان ذئباً. غير أنّ أولريكا بقيت رائقة. وبعد فترة، كما لو أنها تفكر بصوت عالٍ، قالت: «لقـد هزتني السيوف القليلة البـائسـة التي رأيناها أمس في يورك مينستر، أكثر مما هزتني السفن العظيمة في متحف أوسلو».

لقد تقاطعت طرقنا. فقد كانت أولريكا، ذلك المساء، تريد أن تواصل رحلتها الى لندن، وأنا الى أدنبرة.

قالت لي: «في شارع أكسفورد، سأتبع خطى «دي كوينسي» بحثاً عن حبيبته «آن» الضائعة في زحمة لندن».

رددت: «لقد توقف دي كوينسي عن البحث عنها. أما أنا فلن أكف عن البحث ما دمت حياً».
قالت أولريكا بصوت خفيض: «ربّما وجدتها».
أدركت أن شيئاً غير متوقع لم يكن محرماً عليَّ، فقبلتها في الفم والعينين. سحبت نفسها بثبات ولكن بلطف وقالت: «سأكون لك في نزل ثورغيت. وحتى ذلك الحين أرجو منك أن لا تلمسني، فذلك أفضل».
قبلت، فالحب بالنسبة لأعزب بقي وحيداً طوال سنوات هبة غير متوقعة من السماء، وللمعجزة الحق في فرض شروطها. عدت بأفكاري الى أيام شبابي الأولى في بوبايان والى فتاة في تكساس هيفاء وجميلة جمال أولريكا وهيفها، كانت مرة قد أنكرت حبها لي.
لم أرتكب خطأ أن أسأل أولريكا ما إذا كانت تحبني. فقد كنت أعلم أنني لستُ حبها الأول ولم أكون الأخير. هذه المغامرة التي ربما ستكون الأخيرة بالنسبة لي، لا بدّ انها واحدة من مغامرات عديدة لتلميذة إبسن المتألقة والحازمة. وتمشينا يداً بيد
قلت: «كل ما أراه يبدو لي حلماً، وأنا لا أحلم أبداً».
أجابت: «مثل ذلك الملك الذي لم يحلم، حتى نوّمه أحد السحرة في زريبة خنازير». ثم أضافت:
«إسمع، ثمة طائر سيغني».
بعد لحظة أو لحظتين سمعنا أغنية الطائر.
قلت: «في هذه المنطقة يزعم الناس أن من يوشك على الموت يقرأ المستقبل».
قالت: «وأنا على وشك الموت».
نظرت إليها بدهشة وقلت: «فلنذهب من وسط الغابة. لنصل ثورغيت أسرع».
قالت: «الغابة خطرة».
فواصلنا المشي بمحاذاة المناطق المقفرة.
همهمتُ: «وددت لو بقيت هذه اللحظة الى الأبد».
قالت: «الى الأبـد. كلمة محرمة على الرجال». ولكي تقلل من تأثير هذه العبارة فقد طلبت مني أن أعيد على سمعها إسمي الذي لم تسمعه جيداً.
قلت: «خافير أوتالودا».

حاولت أن تلفظه ولم تتمكن. وفشلت أنا أيضاً في لفظ إسم أولريكا.

قالت مبتسمة: «سأسميك سيغورد».

أجبت: «لو كنت سيغورد، لكنت أنت برنهيلد».

فتباطأت بخطاها.

سألتها: «هل تعرفين الأسطورة الأيسلندية».

قالت: «بالطبع. تلك القصة المأساوية التي أفسدها الألمان بـ «ال نيبلونغ».

لم أرد أن أثير المسألة مع أولريكا، فسألتها:

«برنهيلد، تمشين كما لو أنك راغبة أن يفصل بيننا سيف».

وفجأة توقفنا بإزاء النزل. لم يدهشني انه كالأول كان يدعى النزل الشمالي. من أعلى السلم نادتني أولريكا: «هل سمعت عواء الذئب؟ لم يعد في انكلترا ذئاب. أسرع».

عند صعودي الى الطابق الأعلى لاحظت أنّ الجدران مزينّة بورق على طريقة وليم موريس بالأحمر الغامق وتصميم لفاكهة وطيور. دخلت أولريكا الى الغرفة. كانت الغرفة المظلمة واطئة السقف، وقد انعكست صورة السرير في مرآة معتمة. وذكرني الخشب الصقيل بعدسة القراءة بالكتاب المقدس. ألقت أولريكا ما عليها من ثياب. ودعتني بإسمي الحقيقي: خافير. شعرت أن الثلج يتساقط أسرع من ذي قبل فاختفت المرايا والأثاث. ولم يعد بيننا سيف. تطاير الزمن كالرمال. وفي ظلمة عشرات القرون تدفق الحب، وللمرة الأولى والأخيرة امتلكت صورة أولريكا.

المجلس

بوينس آيرس ١٩٥٥

إسمي اليخاندروفيري. وربما كان فيه رنين عسكري، لكن لا بريق المجد، ولا ظل المقدوني العظيم ـ والكلمات هنا لشاعر «الأعمدة الرخامية» الذي شرفني بصداقته ـ له أية صلة بالرجل المغمور تقريباً الذي يكتب هذه السطور في الطابق الأعلى من فندق في شارع سانتياغو ديل أستيرو، في جنوب ما من المدينة لم يعد جنوباً. خلال بضعة أيام سأطوي الحادية والسبعين أو الثانية والسبعين، وما زلت أدرس اللغة الأنكليزية لحفنة من التلاميذ. وبدافع التردد أو اللامبالاة أو لأي سبب آخر لم أتزوج حتى الآن وأعيش وحيداً. إنّ الوحدة لا تخيفني، وكفى بالحياة صعوبة أن تحتمل نفسك وعاداتك. إنني أدرك أنّ العمر ينصرم، وآية ذلك أن البدع الجديدة لا تسرني ولا تشغلني، ربّما لأنني أشعر أنها لا تحمل جديداً من حيث الجوهر وأنها ليست أكثر من تنويعات خجولة وعندما كنت شاباً كنت مولعاً بمشاهد الغروب، واحياء الفقراء المكتظة، والتعاسة، وها إني الآن أفضل الصباحات، ومراكز المدن، والدعة. أنا لا أمثل دور هاملت. فقد أصبحت عضواً في الحزب المحافظ وفي نادٍ للشطرنج أحضره في العادة كمتفرج. أحياناً أكون متفرجاً شارد الذهن. ومن كان ذا حب استطلاع فقد تقع عينه في ركن منزوٍ من المكتبة الوطنية في شارع مكسيكو على نسخة من كتابي «دراسة موجزة للغة التحليلية عند جون ولكنز». وهو عمل بحاجة ماسة الى طبعة جديدة سواء لتصحيح أخطائه الكثيرة أو لتقليلها. وقد قيل لي أنّ مدير المكتبة الجديد رجل أدب كرّس نفسه لدراسة اللغات القديمة (وكأن اللغات الحديثة غير متخلفة بما يكفي)، وللتمجيد الغوغائي لبوينس

آيرس متخيَّلة من محبي العراك بالسكاكين . ما همني أن أقابله أبداً. لقد جئت الى المدينة في ١٨٩٩ ، وقد أتيح لي مرة واحدة فقط أن ألتقي وجها لوجه بأحد المتعاركين بالسكاكين أو بمن ذاع صيته على أنه كذلك. وسأروي هذا فيما بعد عندما تجيء المناسبة.

قلت اني أعيش وحيداً، ومنذ عدة أيام أخبرني جارٌ نزيل، وقد سمعني أتحدث عن فيرمين أيغورين أنه مات في «بونتاديل أستي».

أحزنني موت هذا الرجل الذي لم يكن صديقاً لي بالمرة حزناً لا مزيد عليه. أعرف أنني وحيد، وأعرف أنني الشخص الوحيد في العالم كله الذي يحتفظ بالحدث السري «المجلس» الذي لا أستطيع أن أبوح بذكراه لأحد. إنني آخر أعضاء المجلس. ولا ريب أن جميع الناس أعضاء في المجلس، فليس على الأرض من ليس عضواً فيه، ولكنني أعرف أنني عضو من نوع آخر. أعرف ذلك وهو ما جعلني أنأى عن زملاء لا حصر لهم في الحاضر والمستقبل.

لا أنكر أننا أقسمنا في السابع من شباط ١٩٠٤ بأقدس ما عندنا (هل يوجد مقدس على الارض أو هل يوجد ما ليس بمقدس؟) أن لا نفصح عن تاريخ المجلس. ولكن لا أنكر أيضاً أن حنثي بذلك القسم هو أيضاً جزء من المجلس. وفي هذا التعبير الأخير ما يكفي من الغموض، لكنه قد يكون مثاراً لفضول قرائي.

على أية حال ان المهمة التي أخذت على عاتقي القيام بها ليست سهلة. فلم يسبق لي أن جربت فن القصة حتى لو على شكل رسائل ـ وما هو أهم أن القصة نفسها لا يمكن تصديقها. إنّ قلم «خوزيه فرنانديز أيرالا» المؤلف المنسيّ بغير وجه حق لكتاب «الأعمدة الرخامية» هو الشخص الذي يتوجه اليه هذا العمل، ولكن الأوان فات. لن أزوّر الوقائع الحقيقية عن عمد، رغم أنني أرى سلفاً أنّ كسلي وعدم كفاءتي سيؤديان بي الى الخطأ مراراً.

ليست للتواريخ الدقيقة قيمة، فلنقل مرة أخرى أنني جئت من «سانتافي» بلدي الأصلي عام ١٨٩٩. ولم أعد الى هناك أبداً. فقد تعودت على بوينس آيرس، المدينة التي لم أولع بها، كما يتعود المرء على جسده أو على مرض عضال. ودون أن أبالي أعلم أنني سأموت قريباً. ولكن عليَّ أن أمسك نفسي عن هذه الاستطرادات وأن أواصل رواية هذه القصة.

إن السنين لا تغيّر أنفسنا التي فطرنا عليها، إذا كان لأحد نفس فطر عليها. كان الباعث الذي قادني ذات ليلة الى «مجلس العالم» هو الباعث ذاته الذي قادني

قبل ذلك الى العمل في هيئة تحرير « آخر ساعة Ultima Hora » . فالعمل في الصحافة بالنسبة لصبي قروي معدم كان قدراً رومانسياً رومانسية العمل مع رعاة البقر بالنسبة لصبي من المدينة . ولست أشعر بالخجل لأنني أردت مرة أن أكون صحفياً ، وهي وظيفة تبدو لي مبتذلة الآن . وأتذكر أنني سمعت زميلي «فيرنانديز ايرالا» يقول أنّ الصحفيين يكتبون للنسيان ، لكن طموحه أن يكتب للزمن وللذكرى . لقد نحت (كانت هذه الكلمة كثيرة الاستعمال حينئذ) بعض السونيتات المكتملة التي ظهرت فيها بعد مع بعض اللمسات الأخيرة في صفحات «الأعمدة الرخامية» .

لا أتذكر بالضبط المرة الأولى التي سمعت فيها اسم المجلس . ربما كانت في نفس ذلك المساء الذي دفع لي فيه أمين الصندوق راتب أول شهر . ولكي أحتفل باحتضان بوينس آيرس لي ، اقترحت على أيرالا أن نتعشى معاً . فاعتذر قائلا أنه لا يستطيع أن يتغيب عن المجلس . وفهمت في الحال أنه لا يشير إلى أحد المباني المقببة الفخمة على أعتاب شارع يأهله الأسبان ، بل الى شيء أكثر سرية وأبعد أهمية . كان بعض الناس يتحدثون عن المجلس بازدراء معلن ، وآخرون بأصوات خفيضة ، وآخرون بحذر أو فضول ، وليس لأي منهم ـ على ما أظنّ ـ أية فكرة عنه . وبعد عدة أسابيع دعاني أيرالا للذهاب برفقته .

لا بُدَّ أنها كانت التاسعة أو العاشرة مساءً . في طريقنا ونحن في السيارة ، أخبرني أنّ هذه اللقاءات التحضيرية تعقد كل سبت ، وأن دون اليخاندرو غلينكوي ، رئيس المجلس ، أبدى إستحسانه لحضوري بعد أن سمع إسمي . ذهبنا الى كافيتيريا «القنديل» . وكان خمسة عشر أو عشرون عضواً من أعضاء المجلس ينتظمون أمام طاولة طويلة ، ولست متأكداً هل كانت هناك منصة أم أنّ ذاكرتي أضافتها على المشهد . وفي الحال تبينت الرئيس الذي لم تقع عليه عيناي من قبل . كان دون اليخاندرو إنساناً مهذباً ، وكبيراً في السن ، بجبين عريض ، وشعر خفيف ، وعيون رمادية ولحية رمادية تميل الى الاحمرار . كنت أراه دائماً لابسا كنزة صوفية سوداء ، وقد عقد يديه على رأس خيزرانته . كان قوياً وطويلا . وإلى يساره كان يجلس رجل أصغر سناً ذو شعر أحمر أيضاً . وقد أوحى لي لون لحيته العنيف بالنار ، بينما أوحى لي لون لحية غلينكوي بأوراق الخريف وإلى يمينه كان شاب طويل الوجه بجبين ضيق بصورة غير اعتيادية بملابس كأنها ملابس غندور . طلب الجميع قهوة

فيها طلب قلة أفسنتين[1]. وقد لفت انتباهي حضور امرأة، كانت المرأة الوحيدة بين هذا العدد الكبير من الرجال. وعند النهاية الأخرى للطاولة جلس صبي في حوالي العاشرة، وكان يلبس ملابس البحارة، ولم يمض وقت طويل حتى غط في النوم. وكان هناك رجل دين بروتستانتي، ويهوديان لا تخطئهما العين، وزنجي يشدّ منديلا حريرياً أبيض حول رقبته، وكانت ملابسه شديدة الضيق وكأنه قاطع طريق. كانت أطباق الشكولاته أمام الزنجي والولد. أمّا الآخرون فلا أتذكر منهم سوى السيّد مارسيلو ديل مازو، وهو رجل ذو تهذيب جم، ونقاش عذب، ولم أره بعد ذلك أبداً. (ما تزال معي صورة شاحبة سيئة التصوير لواحد من تلك اللقاءات، لكنني لن أنشرها. لأن الملبس والشعر الطويل والشوارب التي كانت سائدة في تلك الفترة ستسبغ على الصورة منظر السخرية بل الرثاثة).

تميل كل جماعة الى خلق لهجاتها وطقوسها، والمجلس الذي كان دائماً ذا طابع حلمي، بدا كأنما أراد من أعضائه أن يكتشفوا ـ عندما تسنح لهم الفرصة ـ هدفه الحقيقي بل حتى أسماء أعضائه وألقابهم. ولم يطل بي الوقت حتى أدركت أنني ملزم بعدم السؤال. فمنعت نفسي حتى من سؤال فرنانديز أيرالا، الذي لم يخبرني بشيء أبداً. ولم أتغيب في سبت ما. وقد توصلت الى هذا الفهم بعد أن انقضى شهر كامل أو شهران. ومنذ الاجتماع الثاني فصاعداً، كان جاري، دونالد ودين، وهو مهندس في سكك حديد الجنوب، كان عليه أن يعطيني دروساً في اللغة الانكليزية.

كان دون اليخانـدرو يتحدث قليلا جداً، ولم يكن الآخرون ليتوجهوا إليه بالكلام، غير أنني شعرت أن كلماتهم كانت تعنيه، وأنهم جميعاً كانوا يبتغون رضاه. وكانت اشارة واحدة من يده البطيئة كافية لتغيير مجرى الموضوع. وقليلا قليلا عرفت أنّ الرجل أحمر الشعر على يساره يحمل الاسم الغريب «تويرل»، أتذكر مظهره الهش الذي هو صفة ملازمة لبعض الاشخاص الطوال القامة كما لو أنّ قاماتهم تسبب لهم الـدوار مما يدفعهم الى الانحنـاء. وكانت يده، على ما أذكر، تعبث دائماً ببوصلة نحاسية يضعها بين فينه وأخرى على الطاولة. وفي أواخر عام ١٩١٤ قتل حين كان بين أفراد المشاة في كتيبة إيرلندية. أمّا الشخص الذي يجلس على يمينه باستمرار، وكان شاباً ذا جبين ضيق، فكان «فيرمين أيغورين» إبن أخ الرئيس. وساكتشف النقاب دفعة واحدة عما عرفته شيئاً فشيئاً، دون أن أؤمن بأساليب الواقعية (التي هي

(١) absinthe شراب مسكر (المورد).

أكثر المدارس تلفيقاً إذا كان ثمة مدرسة كهذه). سلفاً أريد أن أذكّر القارىء بوضعي في ذلك الوقت. كنت صبياً معدماً من كاسيلدا، إبن فلاحين، جاء الى العاصمة ووجد نفسه فجأة ـ هذا ما شعرت به ـ في قلب بوينس آيرس، وربّما (من يدري؟) في قلب العالم كله. والآن بعد نصف قرن ما أزال أشعر بتلك اللحظات المحيرة التي قد لا تكون الأخيرة.

ها هي الوقائع، وسأرويها بقدر ما أستطيع من إيجاز. كان دون اليخاندرو غلينكوي الرئيس، مزارعاً أورغوياً ومالكاً لمساحة شاسعة من الأرض التي تصل الى حدود البرازيل. كان أبوه أبيردياً [1] أصيلا، كوّن نفسه على هذه القارة في منتصف القرن الماضي. وقد جلب معه المئات من الكتب، وهي على ما أظن الكتب الوحيدة التي قرأها دون اليخاندرو في حياته، (إنني اتحدث عن هذه الكتب التي تحسستها بيديّ لأن جذور قصتي تكمن في أحدها).ترك غلينكوي الأب قبل أن يموت إبناً وبنتاً. وقد صار إبنه فيما بعد رئيس المجلس، وتزوجت الابنة من أيغورين وكانت والـدة فيرمين. وفي فترة ما تاق دون اليخـانـدرو الى الانضمام «للمجلس القومي الأورغواوي». لكن الزعماء السياسيين وقفوا في طريقه. فقرّر في سورة غضبه أن يؤسس «مجلسـاً» آخر على نطاق أوسع. وتذكر أنه قرأ في الصفحات البركانية لـ «كـارلايل» قدر «أنا خارسيس كلوتز» المتعبد لإلاهة «العقل» والذي تحدث امام جمعية باريس على رأس ستـة وثلاثـين شخصاً أجنبياً كما لو كان «الناطق باسم البشرية». وقد دفع هذا المثال دون اليخاندرو الى التفكير بالدعوة لمجلس للعالم يمثـل الناس جميعاً من الأمم جميعاً. وعقدت الاجتماعات التحضيرية في كازينو القنديل. وقد تقرر عقد الافتتاح الرسمي في مزرعة دون اليخاندرو بعد حوالي أربع سنوات. ومثل غيره من أهالي أرغواي كان دون اليخاندرو مفتوناً ببوينس آيرس، وإن لم يكن معجباً ببطل الأرجنتين القومي الآن «أرتغاس». لكنه مع ذلك قررّ أخيراً أن يلتقي المجلس في بلدته هو. ومن الغريب أن تنقضي فترة التخطيط التي استمرت أربع سنوات بانضباط يكاد يكون سحرياً.

في البداية كان يُدفع لنا مبلغ ضئيل كل يوم، لكن الحماس الذي ألهبنا دفع فرنانديز أيرالا ـ الذي كان معدماً مثلي ـ الى رفض مبلغه، ثم تابعناه جميعاً، وكان ذلك إجراءً سلبياً، حيث أنه ساعدنا على التمييز بين الغث والسمين، فقلّ عدد

(١) من Aberdeen

الأعضاء، ولم يبق الا المؤمنون.

وكان الوحيد الذي أعطي له عمل بأجر هو السكرتيرة «نورا أيرفخورد» التي كانت تفتقر الى وسائل الدعم المادي الأخرى، والتي كان عملها في نفس الوقت شاقاً، فتأسيس منظمة ذات نشاط عالمي ليس بالأمر الهيّن. كانت الرسائل تروح وتجيء، وكذلك البرقيات. وقد كتب لنا وفود من بيرو والدنمارك والهند. وكتب لنا بوليفي ان افتقار بلاده الى ميناء يطل على البحر لا بدّ أن يكون الموضوع الرئيسي لاجتماعاتنا الأولى. وعلق تويرل الذي كان يتمتع بذهنية تمتاز ببعد النظر، أن المجلس تورط بمشكلة ذات طبيعة فلسفية فالتخطيط لمجلس يمثل الناس جميعاً مثل تثبيت العدد الدقيق للنماذج الأفلاطونية، وهو إشكال استهلك خيال المفكرين على مدى قرون. واقترح تويرل بغير شطط أن لا يمثل دون اليخاندرو غلينكوي أصحاب المواشي فقط بل الأورغواويين جميعاً، ورواد الإنسانية العظام أيضاً، وذوي اللحى الحمراء والجالسين على الكراسي الوثيرة. كانت نورا أيرفخورد نرويجية. فهل ستمثل السكرتيرات والأنوثة النرويجية أو بعبارة أوضح النساء الجميلات جميعاً؟ هل في وسع مهندس واحد أن يمثل المهندسين جميعاً، بما في ذلك مهندسي نيوزلندة؟

وفي تلك اللحظة ـ فيما أظن ـ قاطعه فيرمين: «ويمثل فيري «الغرينغوز[1]» واستغرق في سيل من الضحك.

نظر اليه دون اليخاندرو نظرة قاسية وقال بصوت منتظم: «السيد فيري يمثل المهاجرين العاملين على بناء هذا البلد».

لم يكن فيرمين ايغورين يحتمل مرآي، كان مزهواً بعدة اشياء، في كونه أورغواوياً، في انحداره من عائلة عريقة، في اجتذابه النساء، في اختياره لخياط غالي الكلفة، ثم والله أعلمُ، في أصله الباسكي ـ وهم ناس لم يفلحوا في شيء عبر التاريخ سوى حلب الأبقار.

ثم وقع حادث تافه جداً قضى علينا بالعداوة. بعد أحد الاجتماعات إقترح علينا أيغورين أن نذهب الى ماخور من مواخير شارع خونين. لم تجتذبني الفكرة لكني وافقت حتى لا أكون عرضة لسخريته. وذهبنا مع فرنانديز أيرالا. وفي الطريق إلى خارج البيت التقينا برجل ضخم جداً دفعه أيغورين، الذي كان سكران قليلا،

---

(١) لقب احتقار يطلق في امريكا اللاتينية على الناطقين بغير الاسبانية عامة وعلى رعايا الولايات المتحدة خاصة.

فاعترض طريقنا الغريب بسرعة قائلا: «من أراد أن يذهب فليمرَّ عبر هذه السكين».

أتذكر وميض سكينه في ظلمة الممر. تراجع أيغورين خائفاً. ولم أكن واثقاً من نفسي، لكن حقدي طغى على خوفي. ومددت يدي إلى إبطي وكأنني سأسحب سلاحاً، وقلت بصوتٍ ثابت: «فلنسوِّ هذه المسألة في الشارع».

أجاب الغريب بصوت مختلف هذه المرّة: «هذا هو نوع الرجال الذي أحبه. إنما أردت اختبارك أيها الصديق».

ضحك هذه المرة بتودد.

أجبته: «إذن فهذا هو الصديق في رأيك». وسلكنا طريقنا نحن الثلاثة وخلّفناه.

دخل الرجل الى الماخور. وسمعت فيما بعد أن إسمه كان «ثابيا» أو «باريديس» أو شيئاً من هذا القبيل، وأنه كان مشهوراً بالعراك. على الرصيف صفق لي أيرالا، الذي بقي محتفظاً بهدوئه وقال بتأثر: «بيننا نحن الثلاثة يوجد جندي مسكيتي»[1].

ولم يغفر لي فيرمن أيغورين مشاهدتي له وهو يتراجع.

أشعر أن قصتي تبدأ هنا فعلاً. أمّا الصفحات السابقة فلم تكن إلا عرضاً للظروف التي شاءتها المصادفة أو القدر لكي يقع الحدث الذي لا يصدق ـ الذي ربما كان الحدث الوحيد في حياتي. كان دون اليخاندرو غلينكوي في صدارة المجلس دائماً، ولكن خلال فترة من الزمن شعرنا، ليس بغير ريبة أو دهشة أن الرئيس الحقيقي هو تويرل. كان هذا الشخص الفريد بشاربه الملتهب يتزلف لغلينكوي بل لفيرمن أيغورين أيضاً، ولكن بطريقة مبالغ فيها بحيث يظن الحضور بأنه يهزأ بالاثنين حقاً، لذلك لم تتعرض أمانته لشبهة. وكان غلينكوي يعمل مأخوذاً بثروته الواسعة. واكتشف تويرل أنه يكفي للحصول على شيء أن يبيّن أن تكاليفه تقع في متناول الموارد المالية للرئيس. وابتدأ الشك يساورني في أن إسم المجلس لم يكن أكثر من مصادفة. كان تويرل يقترح مناطق جديدة للتوسع، وكان دون اليخاندرو يوافق دائماً. وكان كمن يعيش في منتصف دائرة تكبر وتكبر أبداً. على سبيل المثال قال تويرل أن المجلس بحاجة الى مكتبة مراجع، فشرع نيرنشتاين الذي كان يعمل في مكتبة بمطالبتنا بأطالس خوستوس بيرثيس، وعدة موسوعات كبيرة

---

(١) musketeer : جندي مسلّح بمسكيت أو بندقية قديمة خاصة بجُند المشاة.

ابتداء من كتاب بليني «التاريخ الطبيعي»، و «النظرات» لبوفيس حتى المتاهات الممتعة (انني أعيد قراءة هذه الكلمات بصوت أيرالا) عند الموسوعيين الفرنسيين في عصر التنوير، والموسوعة البريطانية، وبيرلاروس، ولارسين، ومونتاني سيمون، وأتذكر كيف تحسست بيدي نعومة مجلدات موسوعة صينية بدت لي حروفها أكثر غموضاً من البقع على جلد نمر. ولن أقول هنا ما يخبئه لها المستقبل، ولست بآسف على ذلك.

كان دون اليخاندرو كثير التودد لنا أنا وفرنانديز، ربما لأننا الوحيدان اللذان لم نتملقه. فدعانا الى قضاء أيام في مزرعته «لاكاليدونيا» حيث يعمل عنده مجموعة من عمال البناء.

بعد نهاية رحلة نهرية طويلة في الباخرة وطوف خشبي، القينا عصا الترحال على ساحل الأورغواي. وكان علينا أن نقضي عدة ليال في حانات الريف المهدمة في «كوجيا نيغزا» ثمّ سلكنا طريقنا محملين بمتاع خفيف، وقد بدا الريف لي أوسع وأكثر عزلة من المزرعة الصغيرة التي ولدت فيها.

ما أزال أحمل صورتين من المزرعة، الصورة التي جلبتها معي، والصورة التي رأتها عيناي. عبثاً كنت أتخيل وكأنني في حلم، تشكيلة مستحيلة من سهول «سانتافي» المنبسطة ومحطة مياه بوينس آيرس الفكتورية المبهرجة. كانت «كاليدونيا» مبنية من اللبن، وذات سقوف سرجية من القش والممر كان مرصوفاً بالطابوق وكأنه مبني لإمتحان طاقة الانسان على الاصطبار والجلد. كان سُمك الحيطان بقدر ياردة، والأبواب ضيقة. ولم يفكر أحد بزرع شجرة واحدة. وكانت الشمس ترهق المكان بأشعتها من أول الشروق حتى آخر المغيب. كانت الزرائب من حجر، والماشية كثيرة، هزيلة وذات قرون، وأذيال الخيل تمتد حتى تلامس الأرض. ولأول مرة في حياتي تذوقت طعم اللحم المذبوح حديثاً. وجُلبت بعض أكياس البسكويت. وبعد عدة أيام قال لي رئيس العمال أنه لم يذق طعم الخبز في حياته. سأل أيرالا عن الحمّام فدله دون اليخاندرو بإشارة واسعة على البّر كله. كانت ليلة مقمرة، وذهبت لأمدد ساقيّ، وتعجبت أن نعامة كانت تراقب أيرالا.

كان الحرّ الذي لم يفلح الليل في تبديده شديداً ولا يحتمل، حتى امتدحنا البرد جميعاً. وكانت الغرف واطئة السقوف وكثيرة، وخالية من الأثاث في الغالب. وقد أُعطينا واحدة بابها الى الجنوب، وفيها سريران ومزينة مع طشت وإبريق فضيين.

وكانت الأرضية ترابية.

وفي اليوم الثاني زرت المكتبة ومجلدات«كارلايل»، فوجدت الكتب مهداة الى الناطق باسم البشرية «أنا خارسيس كلوتز» الذي أدّى بي الى ذلك الصباح والى تلك الوجدة. بعد الفطور، الذي كان مثل العشاء، أرانا دون اليخاندرو المبنى الذي في طور البناء. قطعنا مسافة ثلاثة أو أربعة أميال على ظهور الجياد في الفضاء المفتوح وتعرض أيرالا الذى لم يكن يحسن ركوب الخيل لحادث، وعلّق رئيس العمال بعبوس: «أنتم الأرجنتينيون تعرفون حقاً كيف تترجلون».

عن مسافة كان بإمكاننا أن نرى موقع البناء. كان نحو من عشرين رجلاً يعملون على بناء مدرج متداع. وأتذكر سلسلة المسارح والسلالم والصفوف الحجرية التي كانت السماء تتخللها.

أكثر من مرة حاولت أن أتحدث مع رعاة البقر لكن جهودي ذهبت هباءً. فهم يعرفون على نحو ما أنهم كانوا مختلفين، وكانوا يستخدمون لغة أسبانية برازيلية مفخمة.وكان واضعاً أن الدم الهندي والدم الزنجي يجريان في عروقهم. كانوا قصار القامة وأقوياء البنية. وفي لاكاليدونيا أصبحت رجلاً طويلاً، وهو شيء لم يحدث لي حتى ذلك الحين.

في الأغلب كانوا جميعاً يلفون أرجلهم بالـ «شيريبا» وقليل منهم يلبسون «بومباجا[1]» فضفاضاً وعريضاً. وكان فيهم القليل أو لم يكن فيهم شيء من الأبطال العليلين في كتب هرنانديز أو كتب رافائيل او بليغادو. وتحت تأثير كحول ليلة السبت كانوا يتحولون الى العنف بسهولة. ولم تكن بينهم أية إمرأة، ولم أسمع قيثاراً أبداً.

كنت مهتماً بالتغير الذي طرأ على دون اليخاندرو أكثر من اهتمامي برجال البلدان الحدودية هؤلاء. فقد عرفته في بوينس آيرس شخصاً مريحاً ومتحفظاً، أمّا في كاليدونيا فقد صار، كأبيه من قبله، زعيم عصابة ذا وجه جهم. في صباح الآحاد كان يقرأ الكتاب المقدس للعمال الذين لم يكونوا يفهمون كلمة واحدة منه. وفي إحدى الليالي نقل لنا رئيس العمال، وهو شاب حدث ورث عمله عن أبيه، أن أحد عمال النهار وأحد المساعدين الاعتياديين قد اشتبكا في عراك بالسكاكين. نهض دون اليخاندرو بهدوء، وعندما وصل الى حلقة المتفرجين على العراك، سحب السلاح

(١) بومباجا: نوع من السراويل الفضفاضة جداً من الاعلى والضيقة من الأسفل.

الـذي يحمله معـه دائماً وسلّمه الى رئيس العمّال (الذي بدا لي ذليلاً) ووقف بين السكاكين. وسمعته يأمرهم في الحال: «القوا بأسلحتكما أيها الولدان». وبنفس الصوت الهادىء أضاف: «والآن تصافحا وكونا لطيفين. فأنا لا أريد شجاراً هنا».

أطاعه الرجلان. وفي اليوم التالي علمت أن دون اليخاندرو طرد رئيس العمال.

شعرت أنّ الوحدة تقرع بابي، وساورني الخوف من انني لن أعود الى بوينس آيرس. وتساءلت فيما إذا كان فرنانديز أيرالا يواجه المخاوف نفسها. تحدثنا كثيراً عن الأرجنتـين، ومـا عسى أن نفعل عندما نعود. واشتقت الى الأسود الحجرية عند مدخل شارع «خوخوي» قرب «بلازا ديل أونسه» والى ضوء مشرب قديم في بعض أنحـاء المدينة، وليس الى مأواي الأليف. وتعودت على ركوب الخيل والجري بها لمسافات طويلة. وما زلت أتذكر فرساً رقطاء تعودت أن أسرجها بنفسي. في عصرٍ أو ليلة أو في أي وقت آخر، ربمّا كنت في البرازيل ما دامت الحدود ليست أكثر من خط وضعت عليه علامـات كبيرة الحجم. كنت قد تعّودت ألاّ أعد الأيام حينما أخبرنا دون اليخاندرو في نهار كغيره من النهارات: «سنذهب الآن الى أسرّتنا للنوم، فغداً سنخرج مع برودة الفجر».

ما إن عبرنا النهر، حتى شعرت بسعادة غامرة لأنني صرت قادراً على التفكير بلاكاليدونيا بحب.

واصلنا اجتماعات يوم السبت مرة أخرى، في الاجتماع الأول طلب تويرل حق الكـلام. وقـال بأزاهيره البلاغية المعتادة أن مكتبة مجلس العالم لا يجب حصرها بالمـراجـع فقط، وأن الأعمال الكلاسيكية للأمم واللغات جميعاً مستودع حقيقي للثقافة لا يمكن التغاضي عنه. وقد قوبل الإقتراح بالاستحسان في الحال. وقبل فرنانديز أيرالا والدكتور أغناتيو كروز، الذي كان مدرساً للغة اللاتينية، مهمة انتقاء النصوص المناسبة. وتناقش تويرل مع نيرنشتاين حول بعض الأشياء.

في تلك الأيام لم يكن ثمة أرجنتيني إلا وكانت باريس يوتوبياه. وربمّا كان أكثرنا حماسـة فيرمـين أيغورين، وبعده، لأسباب مختلفة تماماً فرناندين أيرالا. بالنسبة لشاعر الأعمدة الرخامية كانت باريس فيرلين وليكونت دي ليزلي، بينما هي عند أيغورين نسخة معدلة من شارع خونين. وأشك في أنه كان متفاهماً مع تويرل. وفي اجتماع لاحق استفسر تويرل عن اللغة التي يجب أن يستعملها أعضاء المجلس، وناقش إمكانية إرسال وفود الى لندن وباريس لجمع المعلومات. وقد وضع إسمي

أوّلا متظاهراً بالنزاهة، ثم وضع إسم صديقه أيغورين. وكالمعتاد فقد وافق دون اليخاندرو.

أظن أني كتبت، أن ورين قد باشر بتعليمي اللغة الانكليزية التي لا تنضب مقابل إعطائه عدة دروس باللغة الايطالية. وسرعان ما انتقلنا من النحو والتمارين المصطنعة عند المبتدئين، ووجدنا طريقنا مباشرة الى الشعر الذي تعتمد صيغه على نوع من الايجاز. وقد كان احتكاكي الأول باللغة التي كان لها أن تملأ حياتي، «ترتيلة» ستيفنسون الشجاعة. ثم جاءت الأغاني القصصية التي أوحاها بيرسي للقرن الثامن عشر المهيب. وقبل أن أرحل الى لندن بقليل، بهرني سوينبرن، وهي تجربة جعلتني أشك (وأشعر بالذنب بسبب ذلك) في سموّ البحر الاسكندري عند أيرالا.

وصلت الى لندن مبكراً في كانون الثاني ١٩٠٢، وإنني لأتذكر الملمس الناعم للثلج المتساقط، الذي لم أره من قبل، وشعرت له بالامتنان ولحسن الحظ فقد سافرنا أنا وأيغورين، كلٌ على انفراد. واستقرَّ بي الحال في بيتٍ متواضع خلف المتحف البريطاني حيث كنت أدرس صبحاً وظهراً في المكتبة بحثاً عن لغة جديرة بأن تكون لغة مجلس العالم. لم أغفل عن اللغات العالمية فاحصاً «الأسبرانتو»[(١)] التي يصفها لوغونس بأنها «لغة غير متحيزة وإقتصادية»، و «الغولابوك»[(٢)] التي تحاول بتصريف الأفعال والأسماء المنحدرة من أصل مشترك أن تستفيد من الامكانات اللغوية كافة. وقد وازنت بين الحجج المؤازرة والمناهضة لإحياء اللاتينية التي ما فتىء الحنين اليها يتجدد رغم انقضاء قرون عليها. وأمعنت النظر في فحص اللغة التحليلية عند «جون ولكنز» حيث يتم تعريف الكلمة في حروف تهجيتها. وكان أن التقيت «بياتريس» تحت القبة العالية في غرفة المطالعة للمرة الأولى.

إنّ المقصود من هذه الصفحات أن تكون تاريخاً عاماً لمجلس العالم وليس تاريخاً لاليخاندرو فيري. لكن الأوّل يتضمن الثاني، كما يتضمن بقية التواريخ الأخرى.

---

(١) لغة عالميّة، وضعها ل. زامنهوف الأستاذ بجامعة وارشو عام ١٨٨٧، وقد اعتمدت مختلف اللغات العالمية جذوراً لها. وتمتاز بالبساطة والمنطقية وسهولة التعلم، لكنها برغم ذلك لم يقدر لها النجاح.

(٢) لغة عالميّة، وضعها الأسقف الألماني يوهان مارتن شيلر عام ١٨٧٩، بالاعتماد على الانكليزية في الدرجة الأساس، والألمانية واللاتينية والفرنسية، وقد مات شيلر عام ١٩١٢ وبموته تفرق الفولابوكيون.

كانت بياتريس طويلة وأنيقة بسيماء جميلة ورأس ذي شعر أحمر كان ينبغي أن يذكرني بشعر تويرل الظليل، ولكنه لم يذكرني به. لم تكن قد بلغت العشرين، وقد جاءت من إحدى المقاطعات الشمالية لدراسة الأدب في الجامعة. كانت خلفيتها متواضعة مثلي. في ذلك الوقت كان الانتماء الى أرومة إيطالية في بوينس آيرس أمراً مشيناً، أما في لندن فقد وجدت ان الانتماء الى إيطاليا يعني انتساباً رومانسياً عند الكثير من الناس. وخلال عدة أماسٍ أصبحنا عاشقين، وطلبت منها أن توافق على الزواج مني، لكن بياتريس فروستً مثل نورا أيرفخورد كانت من أتباع الإيمان الذي بشر به إبسن، ولم تكن ترغب في الارتباط بأحد. وقد تلفظتْ بها لم أجرؤ على البوح به. أيتها الليالي، أيتها الظلمة الدافئة المشتركة، أيها الحب الذي ينساب في الظل كنهر سرّي، يا لحالة الوجد حيث يصير الواحد منا اثنين، يا لبراءة سعادتنا وصفائها، يا لاتحادنا معاً حين كنا نضيع أنفسنا لنضيع في الحلم، يا لتباشير الفجر التي تهل وأنا أراقبها.

سبق أن داهمني الحنين الى الوطن عند الحدود البرازيلية، إلّا أنه لم يكن كذلك في متاهات لندن الحمراء التي منحتني الكثير من الاشياء. ورغم الذرائع التي كنت أدبرها لتأخير رحيلي فقد كان عليَّ أن أعود الى الوطن عند نهاية السنة. واحتفلنا أنا وبياتريس بأعياد الميلاد معاً. وأكدت لها أنّ دون اليخاندرو سيدعوها للأنضمام الى المجلس، فأجابت بطريقة مبهمة أنها كانت دائماً راغبة في زيارة نصف الكرة الأرضية الجنوبي، وأنّ قريبا لها طبيباً قد استوطن تسمانيا.

لم تردْ بياتريس أن تجيء الى الباخرة، كان الوداع في رأيها مثيراً جداً، كان مهرجاناً لا معنى له من التعاسة، وكانت تكره الإثارة. فافترقنا في المكتبة حيث التقينا في الشتاء الماضي. وقد تصرفت تصرفاً جباناً عندما آثرت أن لا أترك لها عنواني، لكي أتجنب عذاب انتظار الرسائل.

كنت أرى دائماً أن طرق العودة أقصر من طرق الذهاب، لكنّ عبور الأطلسي ذاك، محملاً بالذكريات والانفعالات بدا طويلاً بصورة لا مثيل لها. لم يكن يزعجني شيء قدر ما يزعجني التفكير بأن بياتريس ستعيش حياتها بموازاة حياتي دقيقة فدقيقة وليلة فليلة. كتبت رسالة مطولة ثم مزقتها حين غادرنا مونتفيديو. وعندما وصلنا الى الأرجنتين ـ وكان يوم خميس ـ كان أيرالا بانتظاري على الساحل. ذهبت الى مستقري القديم في شارع شيلي، وقضينا ذلك اليوم واليوم الذي بعده سوية

بالحديث والتجوال طويلاً. أردت أن أسترد بوينس آيرس مرة أخرى. وكان مريحاً أن وجدت أنّ فيرمين أيغورين ما يزال في باريس، إذ عرفت أنّ عودتي قبله تعوض على نحوٍ ما عن غيابي الطويل.

كانَ أيرالا مكتئباً. وكان فيرمين يبدد مبالغ طائلة في أوروبا، وقد خالف أكثر من مرة أمر العودة الى الوطن. كان علينا أن نتوقع مثل هذه الأشياء. وقد أزعجتني أنباء أخرى. فتويرل رغم معارضة أيرالا وكروز، نسّب بليني الأصغر، وكان من رأيه أن ليس ثمة كتاب رديء لا ينطوي على شيء جيد. واقترح صفقة غير متجانسة لعدد كبير من كتب الصحافة، وثلاثة آلاف وأربعمائة نسخة من «دون كيشوت» بمختلف الطبعات، والأعمال الكاملة للجنرال ميتر، وأطروحات الدكتوراه، والكتب القديمة، والنشرات الخاصة، وبرامج المسارح. كان يقول: كل واحد من هذه الكتب يشكل شهادة على ما يحدث، وأيّده نيرنشتاين. أما دون اليخاندرو فقد استحسن فعله «بعد ثلاثة أيام سبتٍ رائقة» ـ كما يقول أيرالا ـ. واستقالت نورا ايرفخورد من وضعها كسكرتيرة، واستلم وظيفتها عضو جديد إسمه كارلنسكي، كان أداة لتويرل. إبتدأ ركام الكتب بالارتفاع، دون أضابير أو فهارس، في الغرف الخلفية وفي قبو الخمر في بيت دون اليخاندرو. وفي وقت مبكر من تموز قضى أيرالا أسبوعاً في كاليدونيا حيث أوقف البناءون عملهم. وقد أوضح رئيس العمال في الاستجواب أنّ ذلك التوقف كان بسبب انتهاء الفترة التي حددها ربّ العمل، وإنه كانت تنقصه أيام قليلة لينهي العمل.

في لندن كنت أعددت مسودة تقرير لا جدوى الآن من الإستمرار فيه. في تلك الجمعة، ذهبت لزيارة دون اليخاندرو وإعطائه نسخة مما كتبت. وقد جاء معي فرنانديز أيرالا. كان ذلك في أول العصر، وقد هبت الرياح الشمالية الباردة على البيت. وفي البوابة الأمامية عند شارع ألسينا وقفت عربة حمل تجرها ثلاثة جياد، أتذكر أنّ الحمالين كانوا يقومون بتنزيل الأحمال وتكويمها في الفناء الخلفي وكان تويرل متعجرفاً وهو يصدر الأوامر لهم. كان في البيت أيضاً نورا أيرفخورد ونيرنشتاين وكروز ودونالد ورين، وكأنهم يهجسون شيئاً، وبعض الأعضاء من المجلس. طوقتني نورا بذراعيها وقبلتني. وقد ذكرني ذلك العناق وتلك القبلة بأخريات. وتناول الزنجي يدي، طافحاً بالبشر والسعادة وقبلها.

في إحدى الغرف، كان باب القبو مفتوحاً على مصراعيه وقد اختفت بعض

درجات السلم في ظلمته. وفجأة سمعنا وقع خطىً. وقبل أن تقع عليه أعيننا عرفت أنه دون اليخاندرو. لقد جاء عدواً في الأغلب.

كان صوته مختلفاً. لم يكن صوت الرجل المهذب المتروي الذي يترأس جلسات يوم السبت، ولا صوت ذلك المالك الإقطاعي الذي أنهىٰ عراكاً بالسكاكين، والذي وعظ رعاة البقر بكلمة الله، بل كان صوته أشبه بكلمة الله نفسه.

ودون أن ينظر الىٰ أحد أصدر أمره: «أخرجوا هذه الصناديق. لا أريد كتاباً واحداً في القبو».

أستمرَّ العمل لما يقرب من ساعة. في الخارج على أرض آخر الأفنية وصنعنا كوماً كان أعلىٰ من أطول رجل فينا. كنا جميعاً نجيء ونروح. وكان الوحيد الذي لم يتحرك هو دون اليخاندرو.

ثمَّ صدرَ الينا الأمر: «الآن، أشعلوا النار في هذه الكومة». شحب وجه تويرل. وهتف نيرنشتاين «كيف سيتمكن مجلس العالم من العمل بغير هذه المواد الثمينة التي جمعتها بحب غامر؟».

قال دون اليخاندرو: «مجلس العالم» وضحك بسخرية ولم يسبق لي أن سمعته يضحك من قبل.

ثمة متعة غامضة في التدمير. فرقع اللهب المشتعل، وكان علينا أن نلتصق بالجدار أو أن ندخل الىٰ الغرف. تركنا الظلمة والرماد ورائحة الإشتعال في الفناء. وأتذكر بعض الصفحات التي سلمت من النيران وبقيت بيضاء فوق الأرض. نورا أيرفخورد التي كانت تُكنّ الحب لدون اليخاندرو كما تُكنّهُ النساء الشابات لرجال أكبر سناً قالت دون أن تفهم ما حصل تماماً: «إن دون اليخاندرو يعرف ما يفعل». أيرالا الوفي للأدب انبرىٰ قائلاً: «لا بدَّ من إحراق مكتبة الاسكندرية كلّ بضعة قرون». وبعد حين جاءنا التفسير:

بدأ دون اليخاندرو القول: «لقد تطلب مني أربع سنوات فهمُ ما أنا مزمع علىٰ قوله. يا أصدقائي إنّ ما عاهدنا أنفسنا علىٰ القيام به هو عمل جسيم، حتى أنه ليشمل العالم كله. إنّ مجلسنا لا يستطيع أن يكون مجموعة من الثرثارين الذين يصرخ كل منهم بأذن الآخر في عاصفة المزرعة النائية. لقد بدأ مجلس العالم منذ اللحظة التي كان فيها العالم، وسيستمر حتى حين نصبح هباء منثوراً. لا وجود لمكان لا يوجد فيه: المجلس هو الكتب التي أحرقناها. المجلس هو جوبيتر فوق كوم

الرماد، والمسيح فوق الصليب. المجلس هو ذلك الصبي التافه الذي يبدد ثروتي على البغايا».

لم أستطع منع نفسي من تأييده. قلت: «دون اليخاندرو، أنني أيضاً أستحق اللوم. لقد أنهيت تقريري الذي أناوله لك الآن، لكنني بقيت في إنكلترا طويلاً، مبدداً أموالك على امرأة».

واصل دون اليخاندرو كلامه: «لقد توقعت ذلك جيداً يا فيري. المجلس هو ماشيتي. المجلس هو الماشية التي بعتها وأميال الأرض التي لم تعد ملكي».

وارتفع صوت استولى عليه الرعب، وكان صوت تويرل: «هل تعني أنك بعت لاكاليدونيا؟».

قال دون اليخاندرو بهدوء: «نعم لقد بعتها، وليس بحوزتي الآن شبر واحد منها، غير أنني لست بآسف على ما فعلت، فأنا أرى الآن الأشياء كما هي. قد لا نلتقي مرة أخرى، لأن المجلس ليس بحاجة لنا. لكن في هذه الليلة الأخيرة سنخرج جميعاً سوية لرؤية المجلس الحقيقي».

وغمرتنا نشوة انتصاره بهذا الحل والإيمان. ولم يفكر أحد، ولو لثانية واحدة، أنه كان مجنوناً.

في الساحة صعدنا الى عربة مكشوفة. وجلست على مقعد السائق بجانب الحوذي. أمره دون اليخاندرو:

«مايسترو، دعنا نتجول في المدينة، خذنا حيث تشاء».

إستقرَّ الحوذي الزنجي في مقعده. ولم يتوقف عن الإبتسام. ولن أعرف أبداً هل أدرك ما كان يجري أم لا.

الكلمات رموز تفترض وجود ذكرىٰ مشتركة. والذكرىٰ التي أريد تسجيلها الآن تخصني وحدي، فقد مات كل من يشترك فيها معي. إنّ المتصوفة ليستشهدون بالوردة، والقبلة، بطير هو كل الطيور، وبشمس هي النجوم كلها والشمس، بزق الخمر، والحديقة، والفعل الجنسي. لكن ليس في هذه المجازات ما ينفعني لوصف تلك الليلة الطويلة الممتعة، التي تركتنا متعبين وسعداء حتىٰ مطلع الفجر. لم نكن نتحدث عندما كانت عجلات العربة وحوافز الجياد تصلصل فوق الحصىٰ. وقبل أن ينفلق أول ضياء النهار. بمحاذاة مجرى مائي متواضع ومعتم ربّما كان جدولا أو نهرا صغيرا ارتفع صوت نورا أيرفخورد بغناء قصيدة من شعر باتريك سبينز،

وانسجم مع بعض أبياتها دون اليخانـدرو فغنّى بصوت خفيض. ولم تنتقل بي الكلمات الإنكليزية الى صورة بياتريس. وهمس تويرل خلفي: «أردت شراً ففعلت خيراً».

شيء مما لمحناه كان مفعماً بالحياة ـ السور الضارب الى الحمرة في مقبرة ريكوليتا، سور السجن الأصفر، رجلان يرقصان معاً عند زاوية الشارع القائمة، الباحة بآجرها الأسود والأبيض، وسياجها ذي القضبان المعدنية، حاجز القطار، بيتي، السوق، الليلة الكئيبة التي لا يسبر غورها، لكن ليس في هذه الأشياء الزائلة التي ربما كانت أشياء أخرى ما يهمّ. ما يهمّ حقاً هو الشعور بأن خطتنا التي هزأنا بها أكثر من مرة كانت موجودة وجوداً حقيقياً وسرياً وكانت العالم وأنفسنا. وبمرور السنين، دون أمل كبير، بحثت عن طعم تلك الليلة. مرات قليلة شعرت أنني أمسكتها في الموسيقى، في الحب، في الذكريات التي لا أمان لها. ولم تعاودني الا مرة واحدة في حلم. وكان صباح يوم السبت، عندما أقسمنا أن لا نتحدث مع أحد بشأن المجلس.

لم أرَ أحداً منهم مرة أخرى، باستثناء أيرالا. ولم نتحدث لا أنا ولا هو عن المجلس، فقد كان كل حديث إنتهاكاً لحرمته. عام ١٩١٤ مات دون اليخاندرو غلينكوي ودفن في مونتفيديو، بينما كان أيرالا قد توفي في العام الذي قبله.

مرة التقيت مصادفة نيرنشتاين في شارع ليما وتظاهر كلانا بأنه لم يرَ الآخر.

ثمّة أشياء أُخرَىٰ

«احتفاء بذكرى هـ . ب . لفكرافت»

وأنا علىٰ وشك تأدية آخر امتحان لي في جامعة تكساس في أوسطن علمت أن عمي «أدوين آرنيت» قد مات نتيجة تمدد الأوعية الدموية في آخر القارة الأمريكية الجنوبية. شعرت بما يشعر به كل شخص اذا مات له أحدهم، واستبدبي ندم ـ لا جدوى منه الآن ـ لأنني لم أكن أكثر عطفاً. فنحن ننسى أننا جميعاً موتىٰ نتحدث مع موتىٰ. كنت أدرس الفلسفة. وتذكرت أن عمي الذي كان بيته في كاسا كولورادا قرب لوماس عند أطراف بوينس آيرس هو الذي دفعني لدراسة المعضلات الفلسفية الجملية دون أن يتطرق الى ذكر إسم معين. وكان من محاسنه أنه ساعدني علىٰ الإلمام بمثالية «باركلي»، وكان يكتفي بلوح شطرنج لتوضيح مغالطات الإيليين. وبعد سنوات كان عليه أن يعيرني رسائل «هنتون» التي تحاول أن تقيم الدليل على واقعية المكان رباعي الأبعاد، حيث يطلب من القارىء تخيل مكعبات متعددة الألوان بتمارين معقدة. ولن أنسى الموشورات والأهرامات التي كنا ننضدها علىٰ أرض المكتب.

كان عمي مهندساً. وقبل تقاعده من وظيفته في السكك، قرّر أن يبني له بيتاً في تورديرا، التي كانت توفر له مزايا الريف مع القرب من المدينة. ولم نحسب أن يكون المعماري شخصاً آخر غير صديقه الحميم «الكسندر موير». كان هذا الرجل المتزمت يتبع تعاليم جون نوكس المتزمتة. وكان عمي مثل أغلب رجال زمانه، رجلا حرَّ التفكير، أو بالأحرى تعطيليّاً لا ادريّاً، لكنه كان مهتماً باللاهوت، كما كان مهتماً بمكعبات هنتون الوهمية وكوابيس هـ. جـ ويلز الشاب المشيدة تشييداً متقناً. كان

يحب الكلاب، وكان عنده كلب رعي كبير سمّاه صموئيل جونسن، إحياء لذكرى لتشفيلد مسقط رأسه البعيد.

كانت كاسا كولورادا تنتصب فوق وهدة من الأرض تحدّها من الغرب الحقول التي لوحتها الشمس. وفي داخل سياجها لم تتمكن أشجار الأوركادية من تلطيف كثافة هوائها. وبدلاً من السطح المنبسط كان سقفها سقفاً سرجياً مكسوّاً بالقرميد وبرجاً مربعاً مع ساعة. كانت هذه الأشياء تجعل الجدران والكوى أكثر انقباضا. وكصبي تعودت أن أقبل هذا القبح كله، كما يقبل المرء بهذه الأشياء المتنافرة التي نسميّها العالم، لمجرد أنها توجد معاً.

عدت الى البيت في ١٩٢١. كان البيت قد عرض في المزاد لتجنب التعقيدات القانونية. واشتراه شخص نكرة إسمه «ماكس بريتوريوس»، بعد أن دفع ضعف ما دفعه أعلى مزايد. وما انّ تم توقيع العقد حتى وصل في ظهيرة متأخرة بصحبة مساعدين، وحملا الى مخزن النفايات القريب من شارع دروفر القديم أثاث البيت كله، والكتب كلها، والأواني كلها. (أتذكر بحزن التخطيطات الجميلة على مؤلفات هنتون والكرات الكبيرة). في اليوم التالي ذهب بريتوريوس الى موير واقترح عليه أن يقوم ببعض التغييرات التي رفضها المعماري بازدراء. وكذلك رفض النجارون المحليون أن يؤثثوا البيت. وأخيراً قبل شخص إسمه «مارياني» من «غلو» بشروط بريتوريوس. ولمدة أسبوعين كاملين بقي يعمل ليلاً وراء أبواب البيت الموصدة. وليلاً أيضاً إنتقل مالك البيت الجديد الى كاسا كولورادا. لم تفتح نوافذ البيت، ولكن كان بالإمكان تمييز خيوط الضوء الباهتة في الظلمة. وذات صباح وجد بائع الحليب كلب الرعي في الممشى ميتاً بلا رأس وقد تقطعت أوصاله. وفي ذلك الشتاء إقتطعوا أشجار الأوركادية. ولم ير أحد بريتوريوس مرة أخرى أبداً.

عندما وصلتني أخبار هذه الأحداث تركتني غير مطمئن البال. أعرف أنّ الفضول من شيمي، ذلك الفضول الذي جمعني بامرأة تختلف عني كل الاختلاف رغبة في معرفة من تكون، وجرني الى تجريب الأفيون (دون حسبان للعواقب)، ودعاني الى خوض مغامرة بشعة، أنا في سبيلي الى روايتها. ولهذا قررت، بفأل سيء، أن أتحرّى هذه المسألة.

خطوتي الأولى كانت لقاء الكسندر موير. كنت أتذكره شخصاً فارع الطول، وأسود، بقوام نحيل يوحي بالقوة. ولكن السنين حنت ظهره فشابت لحيته السوداء.

إستقبلني في بيته الذي كان، كما توقعته شبيهاً ببيت عمّي، ما دام البيتان يتبعان المقاييس الثابتة التي أعدّها الشاعر الجيّد والبناء الرديء «وليم موريس».

كانت محادثتنا شحيحة، في أن شعار اسكتلندا هو الشوك، وبرغم ذلك فقد تكون لديَّ شعور، أنّ شاي سيلان القوي، وقطع الكعك بالكريمة (التي قطعها لي ودهنها بالزبدة وكأنني ما أزال طفلاً) كانت في الحقيقة عيداً كالفينياً زهيداً قدّمه لأبن أخ صديقه. كان اختلافه اللاهوتي مع عمي لعبة شطرنج طويلة تطلبت من كل منهما معونة خصمه.

إنقضى الوقت ولم أصل بعد الى غرضي. خيّم صمت ثقيل، ثم تحدث موير قائلاً: «أيها الشاب، لم تقطع كل هذه المسافة لتتحدث عن أدوين أو المملكة المتحدة، وهي بلد ليس لي بها أدنى اهتمام. إنّ ما يقلقك هو صفقة كاسا كولورادا وصاحبها الغريب. وإن ذلك ليقلقني أيضاً. وأقول لك بصراحة أنّ سرد هذه القصة يزعجني. لكني سأخبرك بها أستطيع، ولن يكون كثيراً».

بعد برهة واصل كلامه على مهل: «قبل أن يموت أدوين، دعاني العمدة الى مكتبه. كان معه أسقف الأبرشية، فطلبا مني أن أقوم بإعداد تصميم للمصلّى الكاثوليكي على أن يكافأ عملي مكافأة جيدة. فأجبتهم بالنفي على الفور، وقلت أنني خادم الله ولا أستطيع أن أرتكب معصية في بناء مذبح للأوثان». وهنا توقف.

تجرأت أخيراً وسألته: «هل هذا كل شيء؟».

«لا، فقد أرادني هذا الفاجر اليهودي بريتوريوس أن أهدم ما بنيت وأرفع بدلاً من ذلك شيئاً بشعاً. إنّ المعاصي تأتي بأشكال عديدة».

همس هذه الكلمات برزانة ونهض على قدميه.

في الخارج، عندما كنت أنعطف حول زاوية، إقترب مني دانيال أيبيرا. كنا نعرف بعضنا كما يعرف الناس بعضهم في المدن الصغيرة. واقترح أن نذهب سوية الى توررديرا. لم يسبق لي أن تحمست لسفّاح، وتوقعت منه سيلاً من قصص العنف السخيفة الملفقة، ولكنني استسلمت وقبلت دعوته. كان وقت الغروب تقريباً. حين لاحت لنا كاسا كولورادا من وراء البيوت، انعطف أيبيرا. سألته عن السبب، فكان جوابه على غير ما توقعت، قال: «انني ساعد فليب الأيمن، ولم يسمني أحد بالرخو أو الجبان. ذلك الفتى الأرغوايي الذي تحمل أعباء الطريق من ميرلو بحثاً عني - ربّما تتذكر ما حصل له. أنظر. قبل عدة ليال، كنت عائداً من حفلة، وعلى بعد

مائة ياردة تقريباً من ذلك البيت رأيت شيئاً ما. كان جوادي قد انتصب على قائمتيه، ولو لم أمسك به جيداً وأرجع به الى الطريق لكنت الآن في عداد الموتى. وما رأيته يفسّر فزع الجواد». ثمّ، على نحو غاضب، أضاف أبيرا كلمة قسم.

لم أنم تلك الليلة. وحوالي الفجر حلمت بنقش لم أره من قبل، أو انني رأيته ونسيته. كان على طريقة «بيرانيسي»، وكان ينطوي على متاهة. كان عبارة عن مدرج حجري تتحلق حوله أشجار السرو التي يصل الى أعاليها. لم تكن هناك أبواب أو شبابيك، أو بالأحرى كان ينكشف عن صف لا نهاية له من الكوى العمودية الضيقة. حاولت أن أرى المينوطور في داخله بعدسة مكبرة. كان مسخ مسخٍ، أقرب إلى البيسون[1] منه الى الثور العادي، وقد بسط جسمه الإنساني على الأرض كأنه نائم ويحلم. بماذا كان يحلم أو بمن؟

مررت بكاسا كولورادا ذلك المساء. كانت البوابة الحديدية مسدودة، وقد التوت بعض قضبانها. وما كان حديقة يوماً اكتسى الآنْ بالأعشاب الضارة. وعلى جهة اليمين ثمة مستنقع ضحل ديست حافاته الخارجية. لم تبق أمامي الا خطوة واحدة، غير أنني بقيت أتجنبها لأيّام، لا لأنني شعرت بأنّها مجّرد مضيعة للوقت، لكن لأنها ستؤدي الى ما لا سبيل إلى اجتنابه الى النهاية.

دون أمل كبير ذهبت الى «غلو». كان مارياني النجار بديناً وذا وجه إيطالي متورد، وأليفاً وودوداً، وقد تقدم به العمر الآن. ألقيت عليه نظرة واحدة كانت كافية لاستبعاد الخديعة التي هيأتها له في الليلة السابقة. أعطيته بطاقتي التي تهجاها مغروراً بصوت عالٍ، ثم ارتبك قليلاً عندما وصل الى «الدكتور». قلت له انني كنت مهتماً بالأثاث الذي صنعه لبيت في تورديرا، والذي كان أثاث بيت عمّي. فتحدث الرجل طويلاً. ولن أحاول أن أورد هنا كل ما قاله وأشار اليه، لكنه قال لي أن شعاره هو أن يلبّي طلبات زبائنه جميعاً، مهما كانت غريبة، ولهذا السبب أنجز ذلك العمل. وبعد أن فتش في عدة دروج أراني بعض الأوراق التي لم أميز لها أولا من آخر، كانت تحمل توقيع «بريتوريوس» المخادع (لا شك أن مارياني حسبني محامياً). وحين ودعته اعترف لي بأنه لو أعطي ذهب العالم كله فلن يضع قدمه مرة أخرى في تورديرا. وقال أنّ الزبون مقدس، لكن بريتوريوس، في رأيه المتواضع، مجنون. ثم استبد به شعور بالأسف لم أتمكن من تهدئته.

---

(١) bison الثور الاميركي (را. المورد)

التمست العذر لهذا الاخفاق، غير أن التماس العذر شيء، ورؤية ما يقع شيء آخر. مرة بعد أخرى قلت لنفسي أنّ حلّ هذا اللغز لا يهمني، وأنّ اللغز الحقيقي هو الزمن، تلك السلسلة المنتظمة من الماضي والحاضر والمستقبل، من الأبد والأزل. وقد ظهر أن هذه التأملات لا قيمة لها، لكني مع ذلك، كنت بعد كل ظهيرة مكرسة لدراسة شوبنهور أو رويس أتمشى ليلة بعد أخرى في الشوارع القذرة التي تحف كاسا كولورادا، أحياناً كنت ألمح في الأعلى ضوءاً ناصع البياض، وأحياناً أخرى أظن أنني سمعت نحيباً. واستمرت هذه الحال حتى التاسع عشر من كانون الثاني.

كان يوماً من أيام بوينس آيرس التي يشعر فيها الانسان أن الصيف يذله ويهينه ويحط من قدره. انقطعت العاصفة حوالي الساعة الحادية عشرة. في البداية جاءت الريح الشمالية، ثم المياه والسيول. تجولت بحثاً عن شجرة، وفي الوهج المفاجىء لالتماع البرق وجدت نفسي على مقربة بضع خطوات من السياج. ودفعني خوف أو أمل.. لا أدري..، لكني أدري أنني جربت ان أفتح البوابة. فانفتحت على غير توقع. وخطوت إلى الداخل، مدفوعاً بالعاصفة، تحت تهديد السماء والارض. كان باب البيت مفتوحاً أيضاً. اندفع في وجهي سيل من المطر الهادر، فدخلت.

كان آجر الأرض قد تكسّر، وخطوت فوق عشب مجدول.

امتلأ البيت برائحة عذبة مقززة. وإلى جهة اليمين أو إلى جهة اليسار لم أعد أدري، عثرت بسلم حجري، وصعدته بسرعة. ودون أن أنتبه لنفسي فتحت زر المصباح.

غرفة الطعام ومكتبة ذكرياتي، أصبحتا غرفة واحدة تضم قطعة أو قطعتين من الأثاث، وقد أزيل الحائط الذي بينهما. ولن أصفهما، ما دمت غير متأكد تمام التأكد - رغم الضوء الأبيض القاسي - من رؤيتهما. فلأوضح أفكاري، لكي يرى المرء شيئاً لا بدّ أن يفهمه. الكرسي ذو الذراعين يوحي للناظر بالجسم البشري بأطرافه ومفاصله، والمقص يوحي بعملية القطع. ولكن ماذا يمكن أن يقال عن المصباح أو السيارة؟ لا يستطيع المتوحش أن يدرك إنجيل المبشر، ولا المسافر أن يرى نشر الأشرعة كما يراه البحارة. ولو رأينا العالم حقاً لفهمناه.

لم يكن أي شكل من تلك الأشكال المجردة من المعنى التي أعطيتها تلك الليلة قد أوحى إليّ بالهيئة البشرية، أو بأي إستعمال قابل للفهم. شعرت بالاشمئزاز

والرعب. في إحدى الزوايا وجدت سلّماً يؤدي الى الطابق الأعلى، كانت المسافات الفاصلة بين الدرجات الحديدية التي لا تزيد عن عشرة واسعة وغير منتظمة. ذلك السلّم الـذي ينـطوي ضمناً على الأيدي والأقدام كان شيئاً يمكن فهمه، وقد أراحني ذلـك نوعـاً ما، أطفأت الضوء وانتظرت فترة في الظلام. لم أسمع أدنى صوت، لكنّ حضور الأشياء اللامفهومة أثار قلقي. وفي النهاية قررت أن أصعد.

ما أن وصلت إلى أعـلى، حتى أشعلـت يدي المـرتعشـة الضـوء مرة ثانية. الكابوس الذي أنذر في الطابق الأسفل انتعش وازدهر في الطابق الأعلى. وهنا إمّا أنني رأيت أشياء كثيرة، أو أشياء قليلة تجمعت معاً. أتذكر الآن أنه كانت توجد طاولة تشبه طاولة عمليات طويلة جداً وعلى شكل حرف U بتجاويف مستديرة عند كل نهاية. فكرت أنها ربما كانت سريراً لساكن البيت الذي أوحى له تشريحه البشع أن يكون على هذا الشكل مثل سرير حيوان أو سرير إله في ظله. ومن صفحة ما من كتاب «لوكان» قفزت إلى شفتي كلمة «غول» التي أمحت، وأن لم تصف بدقة ما كان على عينيَّ أن ترياه فيها بعد. وأتذكر أيضاً صفاً من المرايا على شكل V تلاشى في ظلمة الطابق الأعلى.

من يكون ساكن البيت؟ ما الذي يبحث عنه في هذا الكوكب الذي لا يقل بشاعة عنده عن بشاعته عندنا؟ من أي منطقة سرية من الفلك أو الزمن، من أي غسق مغرق في القدم وصل الآن الى هذه الضاحية الأمريكية الجنوبية وفي هذه الليلة بالذات؟

شعرت بوجود متطفل في العماء. توقف المطر في الخارج. نظرت الى ساعتي ورأيت بدهشة أنها الساعة الثانية. تركت الضوء مشتعلا ونزلت بحذر الى الأسفل. ولم يكن مستحيلاً أن أنـزل من حيث صعـدت، أن أنزل قبل أن يعود صاحب البيت. وخمنت أنه لم يقفل الأبواب لأنه لم يعرف كيف يقفلها.

كانت قدمـاي عنـد العتبة ما قبل الأخيرة من السلّم عندما شعرت بشيء، بطيء، وثقيل، وثنائي يعتلي السلّم. تغلب فضولي على هلعي ولم أغمض عينيّ.

طائفة الثلاثين

تمكن مراجعة المخطوطة الأصلية في جامعة ليدن. كتب النص باللاتينية، غير أن هيلينياً أو اثنين برّرا الاعتقاد بأنه مترجم عن اليونانية. وحسبما يراه ليزغانغ فإنه يرقى الى القرن الرابع الميلادي. ويذكره «غيبون»[1] في إحدى حواشي الفصل الخامس عشر من كتابه «التدهور والسقوط». كتب المؤلف المجهول:

لم تكن الطائفة كبيرة لكنها ما برِحت تستقطب الأعضاء وان قلوا عدداً. فقد ذهب عشرهم قتلاً بالسيف أو النار، وانهم لينامون في الطرقات ما دام محرماً عليهم أن يبنوا بيتاً للسكنى بين الخرائب التي أبقت عليها الحرب، وهم يجوبون البلاد عراة تماماً. وهذه وقائع يعرفها الجميع. وما أرمي اليه هنا هو أن أترك أثراً مكتوباً عما دفعني لاكتشاف عادات الطائفة ومعتقداتها. لقد حاججت معلميها وصادفت بعض النجاح في هديهم إلى الإيمان بربنا.

كان أول ما اجتذب انتباهي في الطائفة هو تباين أفكارها بشأن الموتى. فمثلاً يشيع الإعتقاد بين أغلب الجهلاء أن دفن من فارقوا هذه الحياة يعهد به الى أرواحهم. أمّا الأخرون من غير المتشددين، فيعتقدون أنّ المقصود من تذكير يسوع المسيح «بترك الموتى يدفنون موتاهم» هو إنكار الخيلاء المترفة لشعائرنا في الدفن. ويميل كل من ينتمي الى الطائفة الى بيع ما يمتلك والتصدق به على الفقراء، فالمنتفعون يتصدقون على غيرهم وهؤلاء، بالمقابل إلى آخرين غيرهم. وهذا بحد ذاته كافٍ لتفسير عريهم وعوزهم الذي يقترب بهم من دولة الفردوس. وانهم ليتحمسون لترديد هذه الكلمات «أنظروا الى طيور السماء. إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تملك سقائف أو مخازن. ومع ذلك يقوتها أبوكم السماوي. ألستم أنتم بالحري أفضل منها».

إن تعـاليمهم لتحـرم كل أشكال الاكتناز «فاذا كان الله يعيد كساء الحقول بالعشب، الذي يوجد اليوم ويلقى في التنور غداً، فلماذا لا يكسوكم أنتم، يا قليلي الايمان؟ فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب».

والحكم بأن «كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه» هو جزء من نصيحة الاستقامة للاحتفاظ بالعفة وطهارة القلب. ومع ذلك فهناك أعضاء كثيرون من الطائفة ممن يرون أنه لو صحَّ وجود رجل واحد على الأرض ينظر الى المرأة ولا يشتهيها فقد ارتكب الزنى جميع الرجال. وما دامت الشهوة خطيئة كالفعل، فان الصالحين من الناس قد يتساهلون بالاشتهاء المفرط دون أن ينتبهوا الى خطورته.

إن رجال الطائفة يعرضون عن الهياكل، ويبشر المسنون منهم بتعاليمهم في الهواء الطلق من على تل أو حائط، أو أحياناً من زورق على الساحل.

وقد كان إسم الطائفة مبعث افتراضات لا تنقطع. فهناك من يرى أنه يشير الى العدد النزر الذي انتهى اليه المؤمنون بالطائفة وتقاليدها. وهو افتراض سخيف مع أنـه نبوئي، لأن الطائفة محكوم عليها بالفناء بسبب اعتناقها لمعتقداتها. ويذهب افتراض آخر إلى أن إسمها مشتق من طول فلك نوح الذي يمتد ثلاثين ذراعاً. ويرى آخر رأياً يشوّه التقويم، فيشير إلى أنه مشتق من عدد الليالي التي يتألف منها الشهر القمري. ويزعم آخر أنه مشتق من عمر المخلّص عندما عُمِدَ. وآخر من عمر آدم عندما أخرج من أديم الأرض. وكل هذه الإفتراضات غير صحيحة. ولا يقـل عن ذلك ضلالاً قائمة العروش أو الآلهة الثلاثين ومنها «أبراكساس». وقد تصور برأس ديك، وذراعي إنسان وجذعه، وذيل أفعى مضفورة.

لست بموهوب في نقل حقيقة الدين. والمرء قد يعرف حقيقة الدين لكنه لا يستـطيع أن يماري فيه. وقـد يوجد موهـوبـون أقدر مني لينقذوا أعضاء الطائفة بالتبشـير، بالتبشـير أو بالنـار، لأن الإمتثال للقتل أفضل من إرتكاب الانتحار. ولذلك سأقتصر على تقديم صورة عن هذه البدعة البغيضة.

لقد تمثل الكلمة بشراً سوياً ليكون رجلاً بين الرجال الذين سيسلمونه للصليب ليكفر عنهم. لقد ولد من رحم امرأة من الشعب المختار، ليس فقط ليبشر بالمحبة، بل ليذوق الشهادة.

كان من الضروري للأحـداث أن تظلَّ في البـال. وقتـل النفس الإنسانية بالسيف أو بشراب الشوكران لا يكفي لجذب انتباه البشرية نحو آخر الزمان. فالله

رتَّب العالم ترتيباً مثيراً. وذلك هو معنى العشاء الأخير، كلمات يسوع لمسلّمه، تحذيره لواحد من تلاميذه، مباركته للخبز والخمر، تعهد بطرس أن لا يشك فيه، سهر العشية في ضيعة الجثمانية، نوم التلاميذ الإثني عشر، الصلاة البشري لإبن الله، عبور الكأس، الجمع الكثير بالسيوف والعصي، قبلة الخيانة، بيلاطس الذي غسل يديه، الجلد، الهزء، إكليل الشوك، القصبة، الخل الممزوج بمرارة، الصليب عند أعلى التل، وعد اللص التائب، الزلزلة والظلمة على كل الأرض.

لقد شاءت لي نعمة الله التي أدين لها بالكثير من العطايا أن أكتشف الباعث الحقيقي والسري لإسم الطائفة. ففي «كيريوث» حيث نشأت على التشابه بقي هناك اجتماع سري للعبادة يعرف بـ «الثلاثين قطعة نقدية». كان هذا اسماً قديماً، وهو يزودنا بالمفتاح. ففي تمثيلية الصليب (وأنا أخص هذا بالتبجيل الذي يليق به) كان هناك ممثلون مقصودون وممثلون غير مقصودين، وكلهم ضروري، وكلهم محتوم، فالقسسة الذين يوزعون القطع الفضية غير مقصودين، والجمع الذي طالب بـ «باراباس» غير مقصود. وحاكم يهوذا غير مقصود والجنود الرومان الذين هيأوا صليب شهادته، ودقوا المسامير في جسده وألقوا قرعة على لباسه غير مقصودين. كان الممثلون المقصودون إثنين فقط: المخلص ويهوذا. ويرمي هذا الأخير بثلاثين قطعة من الفضة هي ثمن تخليصه ثم يمضي ليشنق نفسه. ويكون عمره حينئذ مثل عمر ابن الله ثلاثاً وثلاثين سنة. وتتعبد الطائفة لكليهما وتحلّ الآخرين. فليس ثمة مجرم أو متهم. كل شخص، قصد أو لم يقصد، هو مجرّد أداة لما أرادته الحكمة الإلهية في الأزل. وكلهم في المجدِ سواء.

إن يدي لترتجف من تسجيل شيء بغيض آخر، فلكي يحذو المؤمنون حذو معلميهم، فإنهم ما ان يصلوا الى السن المذكورة، حتى يقوموا بتمثيل الدور فيصلبوا على قمة تل. وهذا الإنتهاك الإجرامي للوصايا الخمس لا بدَّ من وضع نهاية له، بكل القسوة التي أدانتها الشرائع البشرية والإلهية. وقد تحل لعنة الله أو ضغينة الملائكة..

إلى هنا ينتهي النص ولم يكتشف أي جزء آخر من المخطوطة.

ليلة الهبات

كان ذلك منذ عدة سنين، في «كافيتريا النسر» في شارع فلوريدا حينما إستمعنا الى هذه القصة. كنا نناقش مسألة المعرفة. وأثار أحدهم النظرية الأفلاطونية التي تذهب الى أننا رأينا كل شيء في عالم سابق، ولذا فإن معنى المعرفة هي أن تعرف الشيء مرة ثانية. وأبي - فيما أظن - هو الذي قال أنّ «بيكون» كتب أنه إذا كان التعلم هو التذكر، فإن الجهل لا يمكن أن يكون شيئاً سوى النسيان. وشاركنا الحديث شخص آخر، طاعن في السن، ربّما أحسّ أنه ضائع في الميتافيزيقا، فقرّر أن يتدخل. وتكلم بمهل وتروٍّ. وإليكم ما قاله:

بصراحة أنا لا أفهم كلّ هذا الحوار عن النماذج الأفلاطونية المثالية. لا أحد يتذكر أول مرة رأى فيها اللون الأصفر أو الأسود، أو أول مرة تذوق فيها فاكهة. قد يكون السبب أنه كان صغيراً، ولم يدر بخلده أنه يفتتح بذلك سلسلة من الإحساسات. بالطبع هناك مرات أولى لا ينساها أحد. وأستطيع أن أروي لكم ما حملته لي ليلة في حياتي، ليلة لا تنسى. إنها ليلة الثلاثين من نيسان ١٨٧٤.

كانت العطل الصيفية حينئذ أطول. ولكنني لا أعرف لماذا مكثنا بعيداً عن بوينس آيرس حتى ذلك الحين. كنا في مزرعة أبناء عمومتنا «آل دورنا» قريباً من «لوبوس» في ذلك الوقت، كان أحد القرويين، وإسمه «روفينو» قد علمني الأشياء الريفية كنتُ دنو من سن الثالثة عشر، وكان هو أكبر مني بقليل. وكان معروفاً بالتهور والسرعة والرشاقة. وعندما يلعب الشباب لعبة العصيّ المشتعلة كان خصمه دائماً هو الذي يصطبغ وجهه بالسواد. ذات جمعة إقترح علينا روفينو أن نذهب إلى المدينة في اليوم التالي لنتلهى قليلاً. فوافقت دون أن أعرف عاقبة ذلك. حذرته بأنني لا أعرف الرقص، فقال إن الرقص سهل التعلم.

خرجنا يوم السبت بعد العشاء، عند الساعة السابعة والنصف تقريباً. كان روفينو بتزيا بأحسن ما عنده من ثياب، وكأنه ذاهب إلى حفلة. وقد وضع في حزامه سكيناً فضية. كانت لدي سكين صغيرة مشابهة لها، ولكنني لم أجلبها معي خوفاً من سخرية الآخرين. وما لبثنا أن لمحنا أول البيوت. لا أظنكم رأيتم بيوت «لوبوس» .. لا يهم.. ليس في الأرجنتين قرية صغيرة تختلف عن غيرها حتى في التفكير بأنها تختلف. كل قرية فيها الطرق الترابية نفسها، الترع نفسها، البيوت الخفيضة نفسها، وكل ما يضفي أهمية على من يركب جواداً.

نزلنا في زاوية شارع أمام أحد البيوت المصبوغة بالأزرق السماوي أو الوردي، وكانت عليه علامة مكتوب عليها «النجمة». كانت الجياد مربوطة الى عمود المربط وعليها سروج جيدة. ومن خلال باب نصف مفتوح على الشارع رأيت بريق ضوء. وعند نهاية الممشى كانت غرفة واسعة بمقاعد خشبية على الجانبين، وبين المقاعد عدد من الأبواب المفتوحة على حيث لا يعرف أحد. نبح كلب صغير مرحباً بي. وكان هناك عدد من الناس وثلة نساء يذهبن ويجئن بثياب تطرزها الزهور. إمرأة محتشمة المظهر تلبس السواد من أعلاها حتى أخمص قدميها بدت لي أنها صاحبة البيت. سلّم عليها روفينو قائلا: «لقد جئتك بصديق جديد، لكنه لا يحسن ركوب الخيل».

أجابت المرأة: «لا تخف، سيتعلم ذلك قريباً».

شعرت بالخجل. وحتى لا أكون محط إنتباههم، أو حتى أجعلهم يعتقدون أنني لم أكن سوى صبي، إبتدأت بمداعبة كلب على حافة أحد المقاعد. كانت بعض الشموع تأتلق في زجاجة على طاولة في المطبخ. وأتذكر أيضاً أنه كان هناك موقد في زاوية خلفية، ولوحة على الجدار الصقيل لمولاتنا «سيدة الرحمة».

كان أحدهم يعزف على قيثارة ما بين نكتة وأخرى، مما سبب له الكثير من المتاعب. ومنعني الخجل من أن أرفض كأس جن أشعلت النار في جوفي. بين النساء لمحت واحدة تختلف عن الأخريات. كانت تدعى «الأسيرة». كان فيها شيء من الهنود، ولكن ملامحها جميلة كرسم، وعيناها حزينتان جداً. وقد تدلى شعرها المضفور حتى خصرها. لاحظ روفينو أنني كنت أحدق إليها.

قال لها: «حدثينا مرة أخرى عن غارة الهنود لنسترد ذكرياتنا عنها».

تكلمت الفتاة كما لو أنها وحدها، حتى شعرت أنها غير قادرة على التفكير بأي

شيء سوى هذه القصة، وإنها الشيء الوحيد الذي حدث لها في حياتها.

قالت: «كنت صبية عندما جاءوا بي من «كاتا ماركا». ماذا كنت أعرف عن غارات الهنود؟ في سانتا أيرين لم نكن نتطرق الى هذه الأشياء، فقد كنا خائفين جداً. وبسرية تعلمت شيئاً فشيئاً أن الهنود يتسللون كالغيم، ويقتلون الناس، ويسرقون المواشي. وكانوا يأخذون النساء إلى السهل الواسع ويفعلون بهنّ كل شيء. لم أكن أصدق ذلك. وقد أقسم لي أخي لوكاس الذي أنشب الهنود في صدره رمحاً فيما بعد، أنّ ما يقوله الناس كذب في كذب، والشيء الحقيقي يكفي أن يقال مرة واحدة لتعرف أنه حقيقي. كانت الحكومة توزع عليهم الشراب والشاي ليظلوا سعداء، ولكن سحرتهم الخبثاء كانوا يأمرونهم بالغزو. وإذا أمرهم رؤساؤهم لم يتورعوا عن مهاجمة أية مزرعة خارج الحصون الموجودة هنا وهناك. ومن كثرة التفكير بذلك، كنت أتمنى أن يجيئوا وأنظر صوب الغروب بإنتظارهم. لا أعرف كم مضى عليَّ من الزمن، فقد إنقضى موسم الضباب وإنقضى الصيف، ورعي المواشي، ومات إبن المزارع، ولم تأت الغارة».

صمتت للحظة أو لحظتين، وإستبد بها التفكير، ثم واصلت: «كأن رياح الجنوب ألقت بهم إلينا. لقد رأيت زهر الشوك في الترع وحلمت بالهنود في تلك الليلة. حدث ذلك مع إنبلاج الفجر. أحست بهم الحيوانات قبل البشر، كما لو أنهم زلزال، وساد الهرج بين الدواب والماشية، واضطربت الطيور في السماء. فهرعنا للنظر في الإتجاه الذي كنت أنتظر قدومهم منه».

سألها أحدهم: «من حذركم منهم؟»

أعادت الفتاة جملتها الأخيرة وكأنها ما تزال بعيدة: «هرعنا للإتجاه الذي كنت أنتظر قدومهم منه. وكأن الصحراء كلها أخذت تتحرك. ومن قضبان الشبابيك رأينا سحابة من الغبار قبل أن نراهم. كانوا حفنة غزاة يضربون أفواههم بأيديهم ويتصايحون. في سانتا أيرين كانت معنا بنادق قديمة، ولكنها كانت صالحة للضجيج فقط، ودفعهم إلى المزيد من الوحشية».

كانت «الأسيرة» تتكلم وكأنها ترتل صلاة تحفظها. وفي الشارع سمعت جنود الصحراء وصرخاتهم. ثم إندفعوا إلى الغرفة وكأنها إندفعوا على ظهور الجياد في بقايا حلم. كانوا سكارى. واليوم عندما أستعيد صورتهم أراهم طوال القامة. وقد ضرب رئيسهم روفينو بكوعه، فامتقع وجه روفينو وابتعد. نهضت السيدة المتشحة

بالسواد، ولم تبارح مكانها، وقالت:
«أنه خوان موريرا».

مع مرور الزمن لم أعد أعرف هل أنني أتذكر رجل تلك الليلة، موريرا المجرم ـ أم شخصاً آخر اعتدت على رؤيته فيها بعد في سوق المواشي. واني لاتذكر تلك اللحية السوداء الطويلة الكثة في وجه موريرا، وأتذكر أيضاً ذلك الوجه المتورد الذي ضربه الجدري. هرع الكلب الصغير فرحاً به، وبضربة من سوطه جعله موريرا يبسط ذراعيه على الأرض. إرتكز الكلب الصغير على ظهره، ومات وقوائمه تضرب الهواء. وهنا تبدأ القصة حقاً.

دون أن أُحدث صوتاً، اتجهت إلى أحد الأبواب التي تؤدي إلى ممر ضيّق. في الطابق الأعلى إختفيت في غرفة مظلمة وباستثناء السرير، الذي كان واطئاً جداً، لم أعرف قط إن كان ثمة أثاث في الغرفة. كنت أرتجف هلعاً. في الأسفل لم يتوقف الصراخ. سمعت صوت كأس تتكسر، وسمعت خطى إمرأة تصعد السلّم، ولمحت خيط ضوء سرعان ما تلاشى: ثم سمعت الأسيرة تنادي بصوت هامس. قالت: «أنا هنا لخدمة من يحبون السلم. اقترب. لن أؤذيك».

ألقت ما عليها من ثياب.اضطجعت إلى جانبها وتحسست وجهها بكلتا يدي. لا أدري كم انقضى من الوقت، فلم نتبادل كلمة أو قبلة. حللتُ ضفيرتها وعبثت أصابعي بشعرها المنسدل، ثم عبثت بها. ولم نرَ بعضنا بعد ذلك، ولا عرفت إسمها الحقيقي أبداً.

ثم دّوى صوت إطلاقة. قالت الأسيرة: «تستطيع أن تخرج من الدرج الآخر».

خرجت، وجدت نفسي في الشارع القذر. كان القمر قد أطلّ. وعريف الشرطة «أندريز شيرينو» كان واقفاً يحرس السور ببندقية ثبت عليها الحربة. ضحك وقال: «أرى أنك نهضت مبكراً».

كان عليّ أن أردّ بشيء، ولكنه لم ينتظر رديّ. ثمّ هبط من السور رجل، فأنفذ الشرطي الحربة في لحمه. سقط الرجل على الارض. وظلّ ممدداً، وهو يئن وينزف. تذكرت الكلب الصغير الذي تملق موريرا. ولكي يقضي على الرجل تماماً أنفذ شيرينو الحربة في جسده مرة أخرى.

قال فرحاً: «هذه المرة لم تفلح يا موريرا».

جاء رجال الشرطة من كل ناحية، وطوّقوا البيت. ثمّ جاء الجيران. وحاول

الشرطي أن يخرج الحربة من جسد القتيل، فصافحه الجميع.

قال روفينو ضاحكاً: «لقد استولت الخيلاء على هذا السفّاح».

كنت أنتقل من مجموعة إلى أخرى، وأروي للناس ما رأيت.

ثمّ فجأة شعرت بتعب شديد، ربّما كنت محموماً. تمشيت قليلاً، ثم وجدت روفينو وعدنا إلى البيت. ومن ظهور جيادنا رأينا خيط الفجر الأبيض. وكنت منهوك القوى تماماً عندما شعرت بالحيرة إزاء ما رأيت من أحداث متعاقبة.

حين إنتهى الرجل من كلامه قال أبي:

«في نهر الليلة الكبير»

قال الرجل: «ذلك صحيح. في غضون ساعات قليلة عرفت الحبّ، ورأيت الموت. كل الأشياء تنكشف أمام الناس، أو لنقل كلّ الأشياء التي يتاح للانسان أن يعرفها. أمّا أنا فقد إنكشف لي شيئان مهّمان في ليلة واحدة. لقد انقضت السنون، ورويت هذه القصة عشرات المرات، ولست أدري ما إذا كنت أتذكرها كما هي أم أنني أتذكر كلماتي فقط. وربّما كان ما حصل لي شبيهاً بما حصل للأسيرة مع غارة الهنود. ولا يهم إن كنت أنا من رأى موريرا وهو يموت، أم كان من رآه شخصاً آخر.

المرآة والقناع

إنتهت معركة «كلونتارف» حيث واجه النرويجيون الهزيمة، فتحدث سمّو ملك إيرلندا مع شاعر البلاط. قال الملك: «إنّ الأعمال العظيمة تفقد رونقها ما لم تصغ بالكلمات، وأريد منك أن تغني انتصاري ومديحي. سأكون «إنياس»، وتكون أنت «فرجيلي». فهل ترى نفسك كفؤاً للقيام بهذه المهمة التي ستُخلّد كلينا؟».

قال الشاعر: «أجل يا مولاي، إنني «أولان» لقد دربت نفسي لأثنتي عشر شتاءاً على ضبط إيقاعات العروض. أعرف عن ظهر قلب الأساطير الثلاثمائة والستين التي تشكل أساس الشاعر الأصيل. وتتيح القوانين لي أن أكون سخياً في استعمال الكلمات القديمة، والإستعارات الأكثر تعقيداً في لغتنا. لقد هيمنت على سرّ الكتابة الذي يصون فننا عن عيون الدهماء الكفيفة. وبوسعي أن أحتفل بالحب، وسراق الماشية، والأسفار، والحروب. أعرف الأنساب الأسطورية للبيوت الملكية في إيرلندا كلها. وأحوز معرفة التنجيم الشرعي والرياضيات، والشرائع، وقوى النبات. لقد هزمت الأنداد في المباريات العامة. ومهرت في فن الهجاء الذي يبعث الأمراض في الجلود، بما في ذلك الجذام. وأعرف كيف أتدبر السيف كما برهنت على ذلك في معركتك. وإنني لأجهل شيئاً واحداً فقط. كيف أشكرك على ما أسديته لي من عطايا».

الملك الذي أتعبته الخطب الطويلة، ولاسيّما خطب غيره قال بارتياح: «أعرف هذه الأشياء جيداً. لقد قيل لي أخيراً أنّ العندليب غنى في ربوع إنكلترا. وعندما تنقضي الأمطار والثلوج، ويعود العندليب من أراضيه الجنوبية، ستنشد مديحك أمام البلاط، وأمام مدرسة الشعراء. إنني أمهلك سنة كاملة. سوف تصقل كلّ كلمة وكل حرف. ولن تكون جائزتك هينة في عرفي الملكي، ولا في ليالي إلهامك

الطوال».

قال الشاعر، الذي كان من الحاشية: «أيها الملك، أية جائزة أسنى من أن أرى محياك!».

ثم انحنى منشداً بيتاً أو بيتين.

عندما دار الحول ـ وكان وقت أوبئة وإنتفاضات ـ قدّم الشاعر مديحه. ألقاه إلقاءً بطيئاً واثقاً دون أن ينظر في النص المخطوط وبهزة من رأسه أبدى الملك إستحسانه. قلّد الجميع إيماءته. حتى أولئك الذين يحتشدون وراء الباب والذين لم يكونوا قادرين على نطق كلمة واحدة. وفي النهاية تكلم الملك.

قال: «إنني أقبل تاجك. فهو نص آخر. لقد وهبت كلَّ كلمة معناها الأصيل، وكل مفردة نعتها الذي أضفاه عليها الشعراء القدامى. وليس في مديحك كله صورة واحدة لم تعرفها عصور الأدب الأولى. إنّ الحرب لبوس الرجال الجميل. والدماء ماء السيوف. وللبحر آلهته، والغيوم تقرأ الغيب. لقد أحسنت صوغ القوافي، والجناسات والأسجاع، والمقادير، وفنون البلاغة المهذبة، وصنوف الوزن الحكيمة. ولو كان على أدب إيرلندا كله أن يموت ـ وهذا فأل سيء ـ لبعثته قصيدتك العصماء هذه دون نقصان. وسوف ينسخها ثلاثون ناسخاً، كل واحدٍ إثني عشرة مرة».

وساد الصمت فعاد ليواصل: «كل ذلك حسن، ومع ذلك لم يحدث شيء. لم يجر الدم في عروقنا أسرع مما كان. ولا لامست أيدينا قوساً. لم يعد أحد منا شاحباً. لم يهتف أحد منا بصرخة حرب، ولا فتح صدره لمهاجمة «الفايكنغ». وقبل أن ينقضي العام، أيها الشاعر، سنصفق لقصيدة أخرى وكدليل على إستحساني فإني أهبك هذه المرآة الفضية».

قال الشاعر: «أشكرك يا مولاي وإني لأفهم».

مضت النجوم في مجراها الساطع. وغنى العندليب مرة أخرى في الغابات السكسونية، وعاد الشاعر بمخطوطته أقصر مما كانت من قبل. هذه المرة لم يُعِدْ قراءتها معتمداً على الذاكرة، بل قرأها واضح التردد، حاذفاً بعض الفقرات كما لو أنه هو نفسه لم يفهمها فهماً كاملاً، أو أنه لم يرد أن يمتهنها. كانت القصيدة غريبة. لم تكن وصفاً للمعركة، بل كانت المعركة نفسها. حيث اشتبك في خضم دوامتها الاله الواحد ذو الأقانيم الثلاثة مع آلهة إيرلندا الوثنية، والآلهة الذين سيخوضون

الحروب بعد مئات السنين من بدء «الايدا القديمة». ولم يكن الشكل أقل غرابة. إسمٌ مفـرد يحكم فعـلاً جمعاً. كانت الحروف مغايرة للإستعمال السائد. وتبدلت الخشونة نعومة. وكانت الإستعارات إعتباطية، أو ظهرت كذلك.

تبادل الملك بضع كلمات مع الادباء الذين يقفون على جانبيه. ثم تحدث مع الشاعر. قال الملك: «أستطيع أن أقول أن قصيدتك الأولى كانت خلاصة وافية لكل ما أنشدته إيرلندا. أما هذه فتتفوق عليها، بل انها لتلغي كلَّ ما قبلها. إنها لتشدهُ، وتحيِّر، وتبعث العجب. لن يحفل بها الجهلاء، وليس كذلك المتعلمون وهم قلة. وستكون علبة من العاج مستقرّ نسختها الوحيدة. ونحن ننتظر من القلم الذي أبـدع مثـل هذا العمل الشامخ، عملاً أكثر سمواً». ثم أضاف مبتسماً: «نحن شخوص أسطورة، ولعلَّ من الأفضل أن تتذكر أن رقم ثلاثة يغلب على الأساطير».

تجرأ الشاعر وقال: «هبات العراف الثلاث، والثلاثي والثالوث الذي لا ريب فيه».

واصل الملك: «وكعلامة على إستحساني خذ هذا القناع الذهبي».

قال الشاعر: «أشكرك يا مولاي، وقد فهمت».

دار الحـول مرة أخـرى. ولاحظ حجـاب القصر أن الشـاعر لا يحمل معه مخطوطـاً. نظر الملك نحوه باندهال. بدا الشاعر إنساناً آخر. ثمة شيء آخر غير الزمن قد حدد سيماءه وغيّرها. بدت عيونه وكأنها تحدق في المدى أو كأنها عمياء. إستأذن الشاعر بقول بضع كلمات مع الملك. فخرج العبيد من المجلس.

قال الملك: «ألم تكتب القصيدة؟».

قال الشاعر بحزن: «بلى. ألا حفظني سيدنا المسيح!».

«هلا أعدتها؟».

«لا أجرؤ».

قال الملك: «سأهبك ما ينقصك من شجاعة».

ألقى الشاعر القصيدة. كانت مؤلفة من بيت واحد. ودون أن يجازف الشاعر بإعادتها بصوت عالٍ، فقد تذوقها مع مليكه كما لو كانت صلاة سرية أو تجديفاً. كان الملك مصعوقاً ومغلوباً على أمره كالشاعر تماماً. نظر الاثنان الى بعضهما بشحوب.

قال الملك: «في شبابي أبحرت بإتجاه الغروب. في إحدى الجزر رأيت كلاب

صيد فضية تنقض على خنازير برٍّ ذهبية. وفي جزيرة أخرى فقد إكتفينا بعطر التفاح السحـري طعاماً. وفي أخرى رأيت حيطاناً من نار. وفي أبعد جزيرة رأيت نهراً مقوساً معلقاً في كبد السماء تسبح في مياهه الأسماك والزوارق. إن هاتيك لعجائب. بيد أنها لا تقاس بقصيدتك التي تضمهنّ جميعاً على نحوما. أية ساحرة أهدتك إياها؟».

قال الشاعر: «صحوت فجراً وأنا أتحدث بكلمات لم أفهمها بادىء ذي بدء. كانت تلك الكلمات قصيدة فشعرت بأنني إقترفت ذنباً. ذنباً لن يغفره الروح القدس نفسه».

قال الملك هامساً: «الذنب الذي نشترك فيه الآن. خطيئة أن تعرف الجمال، الذي هو هبة محرمة على البشر. ويتوجب علينا الآن أن نكّفر عنها، لقد وهبتك مرآة وقناعاً ذهبياً. وها هي هديتي الثالثة والأخيرة».

ووضع في يد الشاعر اليمنى خنجراً.

عن الشاعر نحن نعرف انه قتل نفسه بعد مغادرته القصر. أمّا الملك فقد تحوّل الى شحاذ يجوب إيرلندا طولا وعرضاً ـ وكانت مملكته يوماً ما ـ ولم يردد القصيدة أبداً.

اوندر

لا بدَّ من تحذير القارىء أنّ الصفحات التالية لا توجد في «الكتاب» (١٦١٥) لآدم البـريميني، الذي ولد ومات كما يعلم الجميع في القرن الحادي عشر. لقد إستخرجها «لابينبيرغ» من مخطوط في مكتبة بودليان في أكسفورد، وزودها بثروة من التفـاصيل مفـترضـاً أنها إضـافـة متـأخرة. ولكنه نشرها بوصفها واقعة غريبة في «التحليلات الألمانية» (ليبـزغ ١٨٩٤). انّ رأي هاو أرجنتيني ليس بذي قيمة كبيرة، وليحكم عليها القارىء بنفسه. وترجمتي ترجمة أمينة، ولكنها ليست حرفية.

كتب آدم البريميني:

ليس بين الأقوام التي تعيش بأطراف البرية الممتدة على طول الساحل الآخر من خليج البرابرة، خلف الأراضي التي يتكاثر فيها الحصان البّري، من هم أجدر بالذكر من الأورنيين. لقد منعتني المعلومات غير الأكيدة، أو الملفقة التي يجيء بها التجـار، وأخـطار الطريق، وعمليات سطو البدو من الوصول إلى إقليمهم وأنه لواضـح أنّ قراهم المتخلفـة والمتنـاثـرة تقع في منخفضات فيزتولا. وعلى خلاف السويديين، فإنّ الأورنيين يكشفون عن إيمان حق بالمسيح لم تلوثه النزعة الآرية أو عبادة الشيطان المتعطشة للدماء التي تستمد العوائل الملكية في إنكلترا وبلدان شمالية أخـرى نسبها منها. كان الأورنيون رعاة، وناقلين وشامانات، وحدادي سيوف، وصناعاً، وبسبب صرامة الحرب فهم نادراً ما يحرثون الارض. وإنهم ليتشابهون وقد جعل منهم السهب والقبائل التي تجوبه مهرة في تدبير الجواد والقوس، ورماحهم أطول من رماحنا، بما أنّ الفرسان هم الذين يستخدمونها، وليس الجنود الراجلون.

قد يتخيل البعض ان الاورنيين لم يألفـوا القلم والـدواة والـرق. لقد نحتوا حروفهم كما نحت أسلافنا الخط الروني الذي أوحاه لهم «أودن» بعد أن تدلى من

شجرة الرماد ـ أودن وقد أعطي لأودن ـ في تسعة أيام بلياليها.

إلى هذه المعلومات العامة أضيف نبذة ممّا أخبرني به عابر سبيل من أيسلندة، هو «أولف سغوردسن»، وهو رجل ذو كلمات رزينة ومحسوبة، التقينا في «أوبسالا» قرب الهيكـل. كانت قد انطفأت نار الأخشاب، ودخل البرد والفجر من خلال الشقوق المتفاوتة في الجدار. في الخارج كانت الذئاب الرمادية التي تقتات على لحوم الوثنيين الذين ضحوا للآلهة الثلاثة، قد تركت آثار خطاها القلقة على الثلج. إبتدأ حوارنا باللاتينية، كما هي عادة رجال الكنيسة، ولكننا سرعان ما تحولنا إلى لسان أهل الشمال الذي يمتد من «ثولة»[1] على طول الطريق إلى أسواق آسيا.

قال الرجل:

«بما أنني من نسل الشعراء الأسكندنافيين، فقد كان كافياً لي أن أعلم أنّ شعر الأورنيين يتألف من كلمة واحدة، لكي أنطلق بحثاً عنهم وعن الطريق الذي يؤدي إلى أراضيهم. وبعـد رحلة إستمرت عاماً وصلت إلى هناك متعباً مكدوداً. كان الوقت ليلاً وقد رشقني كل من التقيته بنظرة غريبة، ولم أنج من حجر أو حجرين.

رأيت ضوءاً ينبعث من كير حداد، فاقتربت منه. هيأ لي الحداد، وكان اسمه «أورم» أسباب السكنى تلك الليلة، كانت لغته لغتنا تقريباً. فتبادلنا بضع كلمات. وسمعت من شفتيه للمرة الأولى إسم الملك الحاكم «غونلاوغ». وعرفت أنه، بعد حربه الأخيرة، كان ينظر بعين الشك الى الغرباء، وأنّ من عادته أن يصلبهم.

ولكي أتجنب ذلك المصير الذي يناسب إلهاً أكثر مما يناسب إنساناً، شرعت بتأليف «درابا» أو قصيدة غنائية تحتفي بانتصارات الملك وأمجاده ورحمته. وكنـت استـظهـرها عن ظهر قلب عندما رأيت رجلين يبحثان عني، لم أشأ أن أسلمهما سيفي، بل تبعتهما مختاراً.

كانت ما تزال ثمة نجوم في السماء. أجتزنا أول فسحة من عدة فسح في الأرض المكشوفة التي تنتشر الأكواخ على جانبيها. وكنت أتوقع وجود أهرامات. ولكن ما رأيته في منتصف تلك الساحة كان سارية خشبية صفراء. وفي أعلاها تبينت صورة سمكة سوداء. قال أورم، الذي رافقنا، أن السمكة هي «الكلمة». وفي الفسحة الأخرى رأيت سارية حمراء مرسوماً عليها قرص. وقال أورم أنها «الكلمة».سألته أن

---

(١) Thule : إسم أطلقه الاغريق والرومان على أرض تقع شمال بريطانيا. ويحتمل أن تكون أيسلندة، أو شيتلندة.

يكشف عنها لي. كان حرفياً بسيطاً، كما قال، فلم يعرف. وفي الفسحة الثالثة، التي كانت الأخيرة، رأيت سارية مصبوغة بالأسود وعليها تصميم نسيته. في الجانب الآخر من الساحة كان هناك سور مستقيم طويل، لم أرَ له نهاية على مرمى البصر. وفيما بعد تبينت أنه دائري تسنده سطوح طينية، وأنه ينطوي على حجرة واحدة، وأنه يلتف على المدينة بكاملها.

كانت الخيول المربوطة الى عمود المربط في الخارج ذوات قوام ضئيل وأعراف طويلة. ولم يكن مسموحاً للحداد بالدخول. في الداخل كان رجال مسلحون، كلهم وقوف.

غونلاوغ الملك، الذي كان متوعكاً، كان يضطجع وعيناه نصف متجهتين نحو جمل يتوارى فوق ما يشبه المنصة. كان رجلاً صفراوياً هزيلا، شيئاً مقدساً كاد أن يطويه النسيان، تجثم فوق صدره الندب القديمة. فسح لي المجال أحد الجنود. وجاء بعضهم بقيثار. ترنمت بـ «الدرابا» بصوت خفيض، وأنا راكع. ولم يكن ينقصها من فنون البلاغة مجاز، أو جناس، أو نبر. لا أعرف ما إذا فهمها الملك أم لا، ولكنه أعطاني خاتماً فضياً ما أزال أحتفظ به. ولمحت تحت وسادته حد خنجر. وكان على يمينه لوح شطرنج بمئة مربع وحفنة قطع متفرقة.

دفعني الحرس الى الخلف. فاحتل مكاني رجل جلس أمام الملك ولم يركع. نقر القيثار وكأنه يضبطه. وبصوت خفيض همس تلك الكلمة التي جئت باحثاً عنها، ولم أفهمها فهماً كاملا بعد.

قال أحدهم بتهيب: «لم تعد تعني شيئاً».

رأيت دموعاً تتساقط. فرفع الرجل صوته أو عدَّله. وكانت أنغام قيثاره رتيبة تفيض باللامتناهي. فوددت لو استمرت أغنيته إلى الابد، وودت لو صارت حياتي كلها. ثم بغتة توقفت الأغنية. سمعت الضوضاء التي أحدثها القيثار عندما القى به المغني أرضاً، في ذروة إنفعاله. وخرجنا بغير نظام جميعاً. وكنت في آخرهم. ولاحظت مأخوذاً بالذهول أن الضوء يعلن عن بداية نهار آخر. تمشيت بضع خطوات، ولكنني توقفت حين شعرت بيد توضع على كتفي.

قال: «لقد كان خاتم الملك رقيتك. ولكنك لن تتأخر في مواجهة موتك، لأنك سمعت الكلمة، أنا بخاري ثوركيلسن، سأنقذك. إنني من نسل الشعراء الأسكندنافيين. وفي قصيدتك سميت الدم ما تقطره السيوف، والحرب لبوس

الرجال. أتذكر أنني سمعت هذه الأشياء من أب أبي. أنا وأنت شاعران وسوف أنقذك. إننا هذه الايام لا نسمي الشيء الذي تثيره أغنيتنا، بل نعبر عنه بكلمة واحدة هي «الكلمة».

قلت: «لم أكن قادراً على سماعها. أتوسل اليك أن تخبرني ما هي».

صمت للحظة أو لحظتين وأجاب: «لقد أقسمت أن لا أشي بها. ولا أحد يستطيع أن يعلّم أحداً آخر شيئاً. لا بدَّ أن تجدها بنفسك. والآن فلنسرع، حياتك في خطر. سأخفيك في بيتي حيث لا يجرؤ أحد على البحث عنك، وإذا كانت الريح لصالحنا غداً فستبحرُ في النهر بإتجاه الجنوب».

وهكذا ابتدأت المغامرة التي دامت عدة شتاءات.

لن آتي هنا على ذكر ما حصل لي، وكيف سار حظي القُلَّب. لقد عملتُ مجدّفاً، وتاجر عبيد، وعبداً، وحطاباً، وقاطع طريق، ومغنياً، وفاحصاً للمياه العميقة والمعادن. ذقت الأسر، وقضيت عاماً في مناجم الزئبق، التي ترخي الأسنان وتلينها. حاربت جنباً الى جنب مع سويديين في الحرس الفارانغاني في ميكليغارذر. وعلى شواطىء بحر «أزوف» أحبتني امرأة لن أنساها أبداً، ثمّ تركتها، أو أنها هي التي تركتني الأمر سيّان، لقد خَدعتُ، وخُدعتُ. أراد لي القدر أن أقتل أكثر من مرة. تحداني جندي يوناني، وخيّرني بين سيفين. أحدهما كان أطول بشبر، ولأنني كنت أعرف أنه يريد تخويفي بهذا السلوك فقد اخترت الأقصر، وعندما سألني عن السبب، قلت لأن المسافة من كليهما بين يدي وقلبه واحدة. وبمحاذاة البحر الاسود تقف رخامة القبر التي نقشتها بحروف رونية لرفيقي في السلاح «ليف آرنادسن». قاتلت الرجال الزرق في «سيركلاند». وبمرور الزمن كنت عدة أشخاص. لقد كان ذلك زوبعة، حلماً طويلا، ولكن في كلّ الأحوال كان الشئ الوحيد الماثل أمامي هو «الكلمة». كنت أفقد إيماني بها أحياناً. كنت أقول لنفسي أنّ من العبث نكران اللعبة الجميلة في ضم الكلمات الجميلة، وما جدوى البحث عن كلمة مفردة، قد تكون متخيلة. وكان ذلك جدلا عقيماً اقترح عليَّ أحد المبشرين كلمة الله، ولكنني رفضت. وذات فجر، وأنا أتمشى على طول نهر يصبّ في بحر، اعتقدت أنّ كلّ شيء إتضح لي بما يشبه الالهام.

حين عدت إلى أرض الأورنيين واجهت عدة متاعب حتى عثرت على بيت المغني. وعندما عثرت عليه دخلت وجهرت باسمي. كان المساء قد هيمن. من

السطح طلب مني «ثوركيلسن» أن أشعل الشمعة في الشمعدان البرونزي. لقد استولت الشيخوخة على وجهه لدرجة أنني لم أقو على منع نفسي من التفكير بأنني كنت شيخاً مثله. وكما جرت العادة فقد سألته عن مليكه.

قال: «لم يعد أسمه «غونلاوغ». أنّ له إسماً آخر الآن. حدثني عن أسفارك».

حدثته عنها بترتيب دقيق وبتفاصيل كثيرة أغفلتها هنا. وقبل أن أنتهي سألني:

«هل كنت تغني في تلك الأراضي؟».

لقد فاجأني سؤاله. قلت: «في البداية غنيت لأحصل على رزقي، ثمّ غلبني خوف لا أفهمه بأنني اغتربت عن قيثاري وأغنيتي».

قال: «حسناً، واصل قصتك الآن».

فحكيت له كلّ شيء، وبعد أن انتهيت ساد بيننا صمت طويل.

سألني: «ما الذي أعطتك أول امرأة أحببتها؟».

قلت: «كل شيء».

قال: «لقد أعطتني الحياة كل شيء أيضاً. الحياة تعطي كلّ شيء لكل شخص، ولكن أكثر الناس غافلون عنها. انّ صوتي لمتعب، وانّ أصابعي لضعيفة. ولكن أصغ لي».

تناول قيثاره وهمس بكلمة «أوندر» التي تعني «الأعجوبة». لقد ملأتني أغنية الرجل المحتضر بالجذل، رأيت فيها أبياتي الأولى، والمرأة الزنجية التي وهبتني حبي الأول، الرجال الذين قتلتهم، رعشة الفجر، انكسار المياه، المجاديف، أخذت القيثار وغنيت كلمة مختلفة.

قال الرجل الآخر، وكان عليَّ أن أقترب منه لكي أسمعه:

«حسناً، ها أنت تفهم».

«سماها يوتوبيا، وهي كلمة إغريقية
تعني لا يوجد مكان كهذا»
- كويفيدو -

يوتوبيا رَجلٌ مُتْعَبُ

لا يوجد تلان متشابهان، رغم أن سهول الأرض جميعاً تتشابه. كنت أغذ خطاي في تلك البلدة متسائلاً مع نفسي، دون أن يهمني ذلك حقيقة، ما إذا كانت هذه أوكالاهوما أو تكساس، أو ذلك الجزء من الارجنتين الذي يُسَميه الأدباء «السهل المترامي الأطراف». لم أرَ سياجا على اليمين أو اليسار. وكما حدث في مناسبات أخرى رددت مع نفسي هذين البيتين الذين لا يمكن إستنفادهما من شعر أميليو أوريبي:

في قلب السهل المرعب اللانهائي
وقريباً من حدود البرازيل.

لم يكن الطريق مستوياً. وابتدأ المطر بالهطول. وعلى بعد مائتي أو ثلاثمائة ياردة، رأيت ضوءاً ينبعث من بيت خفيض تسوّره الاشجار. فتح الباب رجل أثار طوله الفارع رعبي. كان يرتدي ملابس رمادية. وشعرت أنه كان بإنتظار شخص ما. ولم يكن على الباب قفل.

دخلنا غرفة طويلة ذات جدران خشبية فيها منضدة وكراسٍ. وكان ثمة مصباح يتدلى من السقف يطلق ضوءاً أصفر. ولسبب ما بدت الطاولةً لي غريبة. وقد أنتصبت فوقها ساعة رملية، لم تلمح منها عيناي سوى نقش معدني أول الأمر. وأشار إلي الرجل للجلوس على أحد الكراسي، جربت أن أتكلم معه عدة لغات، ولم نتفاهم، وحين تكلم أخيراً تكلم باللاتينية. نفضت الغبار عمّا أتذكره من أيام دراستي القصية، وقد أعددت نفسي للنقاش.

قال: «من ملابسك أرى أنك قادم من قرنٍ آخر. والاختلاف في اللغات كان مبعث إختلاف بين الشعوب بل كان مبعث حروب أيضاً. ولهذا فقد عاد العالم الى

اللاتينية. وهناك من يخشون عليه أن يرتدّ إلى الفرنسية أو الليموزية، أو البابيامينتو. ولكن ذلك لا يشكل خطراً مباشراً. ومهما يكن الأمر فلا الماضي بشاغل لي ولا الحاضر».

لم أقل شيئاً، فأضاف: «إذا لم تمانع في مراقبة شخص يأكل، هل ستشاركني؟».

قلت: «نعم» وقد رأيت أنه لاحظ إرتباكي. دخلنا إلى رواقٍ، بأبواب على جانبيه، أدىّ إلى مطبخ صغير كل شيء فيه مصنوع من المعدن. عدنا بالعشاء على صينية وكان عبارة عن أوعية من الذرة المقددة، وعنقود عنب، وفاكهة غريبة ذكرني طعمها بالتين، وإبريق ماء كبير. وإذا لم تخني الذاكرة لم يكن هناك خبز، كانت ملامح مضيفي حادة، وكان ثمة شيء غير عادي حول عينيه. لن أنسى وجهه الشاحب القاتم، الذي لن أراه ثانية أبداً. ولم تصدر عنه أية إشارة عندما تكلّم. ثبطني النقاش باللاتينية، غير أني قلت أخيراً: «ألم يُثِرك ظهوري المفاجىء؟».

قال: «كلا فنحن نستقبل الضيوف من قرن الى قرن. إنهم لا يبقون طويلا. غداً إذا تأخرت ستعود إلى بيتك».

أعادت الثقة الواضحة في صوته الطمأنينة إلى نفسي. وفكرت أنّ من المناسب أن أقدم نفسي: «يودورو أسيفيدو. ولدت عام ١٨٩٧ في مدينة بوينس آيرس. عمري سبعون سنة. وأنا أستاذ اللغة الانكليزية والأدب الأمريكي، وكاتب قصص خيالية».

قال: «أتذكر أني تمتعت بقراءة قصتين خياليتين. أسفار القبطان ليموئيل غوليفر، التي يعتقد الكثيرون أنها حقيقة، والخلاصة اللاهوتية Summa Theologiae. ولكن فلندع الحديث عن الوقائع. فالوقائع لا تهم أحداً. انها مجرد نقاط انطلاق للإختراع والإستدلال. نحن نتعلم في المدارس الشك وفن النسيان، ولاسيّما نسيان ما هو شخصي ومحلي. إننا نعيش في الزمان، الذي هو تتابعي، ولكننا نحاول أن نعيش في الزمان، الذي هو تتابعي، ولكننا نحاول أن نعيش من وجهة نظر الأبدية Sub speie aeteritatis ★. لم نستبق من الماضي سوى أسماء قليلة، تميل اللغات الى تجاوزها ونحن نعرض عن التفاصيل العقيمة. فليس لنا تقويم أو تاريخ، وليس لنا إحصاء. قلت أن إسمك يودورو. لا أستطيع أن أخبرك ما إسمي. لأنني أدعى

★ العبارات لاتينية في الأصل.

«أحد ما» فقط».
«وماذا كان إسم أبيك؟».
«لم يكن له إسم».

على أحد الحيطان رأيت رّفاً. فتحت كتاباً كيفما اتفق؛ كانت الحروف نظيفة ومطموسة، وكانت مكتوبة بخط اليد. ذكرتني خطوطها المنزوية بالابجدية الرونية التي لم تكن تستعمل إلا في كتابة النقوش. فكرت أن رجال المستقبل هؤلاء لم يكونوا أطول فقط، بل كانوا أبرع أيضاً. ونظرت تلقائياً الى أصابع الرجل الطويلة الجميلة.

قال: «سترى الآن ما لم تره أبداً». وناولني نسخة من كتاب «يوتوبيا» لتوماس مور، مطبوعة في بازل عام ١٥١٨، وكانت بعض أوراقها وصفحاتها مفقودة.

أجبته بشيء من الغباء: «أنه كتاب مطبوع. في البيت عندي ما يزيد على ألفي نسخـة منـه. رغم أنها ليست أقدم ولا أثمن من هذه النسخة». وقرأت العنوان بصوت عالٍ.

ضحك الرجل: «لا أحد يستطيع أن يقرأ ألفي كتاب. في القرون الأربعة التي عشتهـا، لم أقـرأ أكثـر من نصف دزينة من الكتب. فضلا عن ذلك، فان اعادة القراءة، وليس القراءة هي ما يهم والطباعة التي هي الان ملغاة بما انها كانت تميل الى مضاعفة النصوص غير الضرورية الى حد الدوار ـ كانت واحدة من أسوأ الشرور البشرية».

قلت: «في ماضيَّ الغريب كانت هناك خرافة سائدة أنّ أحداثاً معينة تقع بين المساء والصباح من كلّ يوم، من المخجل أن يجهلها المرء. كانت الأرض مأهولة بأشباح جمعية: كندا، البرازيل، كونغو السويسرية، السوق المشتركة. لم يكن أحد عارفاً بأي شيء عن التاريخ الذي يسبق هذه الكيانات الأفلاطونية. ولكنهم بالطبع كانا يعرفون آخر التفاصيل الكاملة عن أحدث إجتماع للتربويين، أو عن الانهيار الـوشيك في العـلاقات الدبلوماسية، أو البيانات التي يحرّرها الرؤساء، ويرفعها مستشـار المستشار زاخرة بالكلمات الضبابية الأقرب إلى روح الأدب. كانت هذه الأشياء تقرأ لتنسى بعد ساعات، وتحلُّ محلها تفاهات أخرى. وفي جميع الدوائر كان السياسي أكثر الناس شعبية. فالسفير أو الوزير كان أشبه بالشخص المقعد العاجز الـذي يجب أن ينقل في صف طويل وصاخب من العربات، يتحلق حوله راكبو الـدراجـات والمواكب العسكرية، وينتظره المصورون المتربصون. وكأنَّ أقدامهم

قطعت، كما تعودت أمي أن تقول. كانت الصور والكلمات المطبوعة أكثر واقعية من الأشياء التي تمثلها. وكان المطبوع فقط واقعياً. الموجود هو المصوَّر Esse est percipi: كان بداية مثالنا الفريد عن العالم ومنتصفه ونهايته. في ماضينا ذاك. كان الناس سذّجا. وكانوا يعتقدون بجودة السلع لأن صانعيها يقولون ذلك مراراً وتكراراً. وكانت السرقات متفشية أيضاً، رغم أن الجميع يعرفون أنّ المال لن يدُّر سعادة أو يأتي براحة البال».

أعاد الرجل: «المال؟ مضى عهد المعاناة من الفقر المدقع أو الثروة المتبطرة. والآن فإنّ لكل شخص مهنته».

قلت: «كالأحبار».

لم يبـد عليه أنـه فهمني فواصـل: «لقد اختفت تلك المدن. ولم يختف تماماً الاحتكام إلى أطلال «باهيابلانكا» التي استكشفتها يوماً. الآن لا توجد ممتلكات شخصية، ولا توجد مواريث. في عمر المئة عندما ينضج الانسان يكون قادراً على الالتقاء وجهاً لوجه مع نفسه ووحدته. وعندئذ ينجب طفلاً».

سألت: «طفل واحد فقط؟».

«نعم واحـد فقط. لا داعي لاستمـرار الجنس البشري. يعتقد البعض أن الانسان لسان حال الربوبية للوعي الكوني، ولكن لا أحد واثق تماماً من وجود مثل هذه الربوبية. ومحاسن الانتحار، بطيئاً كان أو فورياً، ومساوئه عند الرجال والنساء على الأرض هي كما أظن موضع نقاش الآن. ولكن فلنعد لما كنا نقول».

وافقته.

«حين يصل العمر بالفرد إلى المئة، لا يعود بحاجة الى الحب أو الصداقة. ولا يشكـل الشر والمـوت القسري تهديداً له. فهو يمارس أحد الفنون أو الفلسفة أو الرياضيات، أو يلعب الشطرنج مع نفسه. ويقتل نفسه حين يريد. فالانسان سيّد حياته. كما أنه سيّد موته».

سألته: «هل هذا اقتباس؟».

«بالطبع، فالإقتباس هو كل ما لدينا الآن. إنّ اللغة هي نسق من الإقتباسات».

سألته: «والمغامرة الكبرى لعصرنا ـ أعني السفر في الفضاء؟».

«توقفت تلك الأسفار منذ قرون. لقد كانت بالتأكيد مصدر إعجاب لكننا لا

نستطيع أن نتخلى عن الوجود في هنا والآن». ثمّ أضاف بابتسامة: «بالاضافة الى ذلـك فكل سفر هو سفر في الفضاء. الذهاب من كوكب الى آخر كالذهاب الى المزرعة عبر الطريق. حين دخلت إلى هذه الغرفة فقد قمت بجولة في الفضاء».

قلت: «هذا صحيح. وقد تعود المرء على الحديث عن المواد الكيماوية والحيوانات».

أدار لي الرجل ظهره ونظر الى الخارج. وراء النافذة كان السهل الأبيض يتلقى نديف الثلج الصامت وضوء القمر.

جمعت ما إختزنته من شجاعة وسألته: «أما زالت عندكم متاحف ومكاتب؟».

«كلا، نحن نحاول أن ننسى الماضي، الا لكتابة المراثي. لا يوجد إحتفاء أو ذكرى سنوية أو تمثال لميت الآن. كل منا يجب أن ينتج ما يحتاجه من فنون وآداب وعلوم».

«إذن فكـل شخص يجب أن يكون «برناردشو» الخاص به، ويسوع المسيح الخاص به، و «آرخميدس» الخاص بـه».

وافق دون أن ينبس بكلمة.

«وماذا حصل للحكومات؟».

«وفقاً للتقاليد، فقد سقطت في الإهمال التدريجي. كانت الحكومات تدعو للانتخابات، وتعلن الحروب، وتجمع الضرائب، وتصادر الثروات، وتأمر بالاعتقالات، وتحاول أن تفرض الرقابة، ولم يكن على الأرض من يطيعها. توقفت الصحافة عن نشر أخبار زعماء الحكومات وتصاويرهم. وكان على الساسة أن يجدوا عملاً شريفاً. بعضهم تحوّل إلى كوميدي جيد وبعضهم إلى داعية إيمان جيد. ربّما كان ما حدث أعقد من هذه الخلاصة». ثمّ واصل بعد أن غيّر نبرته: «لقد بنيت هذا البيت الذي لا يختلف عن غيره من البيوت. نقشت أثاثه ومنحوتاته بنفسي. عملت هذه الحقول، التي سيأتي آخرون لا أعرفهم ويطورونها. هل لي أن أعرض عليك بعض الأشياء؟».

تبعته إلى غرفة مجاورة. أضاء مصباحاً كالأول كان أيضاً يتدلى من السقف. في إحدى الزوايا رأيت قيثاراً به بعض الأوتار. وعلى الجدران كانت ثمة لوحات زيتية مستطيلة يغلب عليها اللون الأصفر. ولم يبدُ أنّها من صنع يد واحدة.

قال: «ذلك هو عملي».

تفحصت اللوحات، واقفاً إزاء اللوحة الصغرى، التي كانت تمثل الغروب أو توحي به، وكانت تنطوي على شيء لا متناهٍ.

قال جاداً: «تستطيع أن تحتفظ بها كتذكار من صديق المستقبل، إذا شئت».

شكرته على ذلك. غير أنَّ لوحات أخرى أثارت قلقي. لا أقول أنها كانت فارغة تماماً، ولكنها توشك أن تكون فارغة.

قال: «إنها مرسومة بألوان لا تستطيع أن تراها عيونك التي تنتمي الى الزمن الماضي».

بعد لحظة، وما أن لامست أنامله الرهيفة أوتار القيثار حتى سمعت بالكاد صوتاً اتفاقياً. ثمّ سمعنا طرقاً.

دخلت الدار امرأة طويلة مع ثلاثة أو أربعة رجال. وقد يظن ظان أنهم أخوة أو أن الزمن قد شابه بين ملامحهم. تكلم مضيفي مع المرأة أولاً:

«علمت أنك ستجيئين الليلة. هل ترين «نلز»؟

«بين فترة وأخرى، ما يزال كعهده مكرساً نفسه للرسم».

«عسى أن يكون موفقاً أكثر من أبيه».

وبدأ تجريد الغرفة من كل شيء. المخطوطات، الصور، الأثاث، المنحوتات، لم ندع شيئاً في البيت. اشتغلت المرأة جنباً إلى جنب مع الرجال. وكنت خجلاً من ضعفي الذي لم يسمح لي بتقديم عون كبير. وخرجنا محملين بالأشياء ولم نغلق الباب وراءنا. لاحظت أن السقف كان على شكل سرج. وبعد أن مشينا خمس عشرة دقيقة استدرنا يساراً. في الفسحة ميزت ما يشبه البرج، تتوجه قبة. قال أحدهم: «إنها المحرقة، وفي داخلها غرفة الموت. يقال أن مبتدعها أحد الأخيار واسمه على ما اعتقد، كان أدولف هتلر».

فتح الوكيل الذي لم يدهشني قوامه الطويل الباب لنا. وتبادل مضيفي معه بضع كلمات. وقبل اجتياز الباب لوّح له مودعاً.

قالت المرأة: «يبدو أن الثلج سيزداد غزارة».

في مكتبي في شارع مكسيكو في بوينس آيرس، امتلك الآن لوحة زيتية سيرسمها شخص ما بعد آلاف من السنوات بمواد تتوزع الآن فوق جميع أنحاء الكوكب.

الرشوة

تتعلق هذه القصة برجلين أو بالأحرى بحدث يشترك فيه رجلان. وليس ما حصل بينهما بمهم، فهو ليس بفريد ولا خارق للمألوف، قدر أهمية شخصية البطلين. لقد ركب كليهما الخيلاء ولكن بأساليب مختلفة وبعواقب مختلفة أيضاً. وقد وقعت هذه الاحدوثة (لانها لا تزيد عن كونها أحدوثة) قبل فترة وجيزة. وفي تقديري فإنها لا تحدث إلا حيث حدثت في أمريكا.

لقد اتفق لي أن كنت في جامعة تكساس في أوسطن لكي أتحدث بالتفصيل مع أحد الرجلين، وهو الدكتور أزرا ونثروب. كان ذلك عند نهاية ١٩٦١. كان ونثروب أستاذ اللغة الانجليزية القديمة (هو لا يستحسن مصطلح الأنغلو سكسونية ويراه مولداً من كلمتين). وما زلت أتذكر أنّه صحح لي أخطائي الكثيرة ومسلسل الافتراضات الخاطئة التي كنت أقرنها باللغة دون أن يختلف معي مرة. وقد قيل لي أنه لم يكن يسأل طلابه في امتحانه أي سؤال، بل يترك لهم اختيار هذا أو ذاك من المواضيع والتوسع فيه. وقد كان صعباً عليه أن يتعوّد على عادات أهل الجنوب وتحاملهم. واستيقظ في داخله الشوق للثلج، وقد لاحظت أن الشماليين يتكيفون مع البرد، خيراً مما نتكيف نحن الأرجنتينيين مع الحر. وما تزال ماثلة أمامي صورة، أخذت الآن بالتلاشي، لرجل طويل قليلاً، ذي شعر أشيب، رشيق أكثر مما هو قوي. وما برحت واضحة ذكرى زميله هربرت لوك الذي أهداني نسخة من كتابه «نحو تاريخ للمجاز» حيث يقرأ فيه المرء أن السكسون لم يستغنوا طويلاً عن تلك الاستعارات الآلية تقريباً (مثل «طريق الحوت» للبحر، و«باز الحروب» للصقر) بينما استمرَّ الشعراء الأسكندنافيون في نسج هذه الاستعارات وضمها ضماً لا فكاك منه.

وأنا أذكر هربرت لوك لأنه جزء مكمل لقصتي.

والآن أصل الى الآيسلندي «إريك أينارسن» الذي ربما كان بطل القصة حقاً. لم يتح لي أن ألتقي به وجها لوجه. فقد وصل تكساس عام ١٩٦٩ عندما كنت في كامبرج. غير أن رسائل صديق مشترك لكلينا هو رومان مارتنيه تركت فيَّ شعوراً بأنني أعـرفه معرفة حميمة. أعرف أنه كان متهوراً، ونشيطاً، وبارداً، وطويلاً في أرض الطوال. وبسبب شعره الأحمر، كان لا بدَّ لتلاميذه أن يلقبوه بـ «اريك الأحمر». وكان من رأيه أن استعمال العامية عند الاجنبي اضطرار وخطأ يجعل منه متطفلاً ولهذا فهو لا يتنازل حتى بقول «أوكي» في مناسبة معينة. عالم جاد للغات النوردية، والانكليزية، واللاتينية، والألمانية، ـ رغم أنه لا يعترف بهذه ـ ولم يجد صعوبة في الوصول الى الجامعات الأمريكية.

كان أول عمل ذي أهمية لاينارسن هو دراسة أربع مقالات كتبها دي كوينسي عند الأصول الدانماركية للهجة الكومبريانية. وقد اتبع هذا العمل بدراسة واحدة من اللهجات الريفية في «يوركشاير» وكان استقبال كلا المطبوعين حسناً، غير أن اينـارسن شعر بأن عمله ما زال يفتقر الى المزيد. وفي عام ١٩٧٠ نشرت مطبعة جامعة ييل كتابه النقدي المطول عن «معركة مالدون». لم يكن بالامكان انكار دقة الملاحظات التي أبداها اينارسن، ومع ذلك، فإنّ في المقدمة بعض الافتراضات التي أثـارت جدلاً في أغلب الأوسـاط السرية الأكـاديمية. فهـو يذكـر هناك مثلاً أنّ للقصيدة صلة من حيث الأسلوب ـ حتى لو كانت صلة بعيدة ـ بشذرة «فنسبور» البطولية، وليس ببلاغة «بيوولف» المتأنية، وأن تناولها للتفاصيل الظرفية المتغيرة ينذر إنذاراً غريباً بالطرق والأساليب التي تعجب بها إعجاباً لا يخلو من حق في الأساطير الأيسلندية. وقد صحح أيضاً عدداً من القراءات في نص الفنستون. وقد أصبح اينارسن أستاذاً في تكساس حال وصوله إليها.

إن المؤتمـرات الأكـاديمية، كما يعلم الجميع، كثيرة وشـائعـة في الجامعات الأمريكية. وقد قدّم الدكتور ونثروب من جانبه بحثاً في إحدى الندوات الجرمانية المهمة قبل سنة في ولاية مشيغان. وطلب رئيس القسم الذي كان موشكاً على التمتع بإجازته، من ونثروب أن يختار موفداً لالقاء بحث في المؤتمر القادم الذي سيعقد فـي وسكونسن. ولم يكن هناك غير مرشحين اثنين هما هربرت لوك وإريك أينارسن.

كان ونثروب، مثل كارلايل، ينكر الإيمان التطهري عند أسلافه،ولكن ليس أخلاق هذا الايمان. كانت مهمته واضحة ولم يتأخر عن إسداء النصيحة. وإذا عدنا

إلى سنة ١٩٥٤ فإن هربرت لوك لم يبخل بمساعدته. ولاسيّما فيما يخص النشرة الملآى بالحواشي عن بيوولف التي حلت محل نشرة كلابر في بعض الجامعات. كان لوك يعمل على تصنيف معجم جرماني - إنكليزي يمكن أن يخلص القراء من عبء المعـاجم الاشتقاقية الذي لا طائل له. كان الأيسلندي أصغر سناً، وقد أكسبته عجرفته كره الناس، بما في ذلك ونثروب. بينما عادت الطبعة النقدية التي أ عدّها أينارسن لـ «مالدون» عليه بالشهرة الواسعة. كان سيّد الجدل والتناظر، وفي الندوة كان ينحت في حجر، قياساً بنظيره الخجول الميّال الى الصمت: لوك.

كان ونثروب في غمرة هذه التأملات عندما ظهرت في أعمدة العرض في فصيلة ييل الفلسفية مادة مطولة عن تدريس اللغة الأنغلوسكسونية. كانت القطعة موقعة بالحروف الأولى من اسم كاتبها!. إوكأنها تريد أن تهدىء الظنون، ثمّ وضع الكاتب تحت ذلك اسم جامعة تكساس. ورغم أن القطعة قد كتبت بأسلوب مهذب ــ إلا أنها كانت تجسد نوعاً من العنف. وادعت أن الابتداء بدراسة اللغة الأنغلوسكسونية عن طريق دراسـة بيوولف، الـذي تعـود أعماله إلى فترة أسبق وإن تكن مكتوبة بأسلوب شبه فرجيلي وبلاغي، هذه البداية، لا تقل تعسفاً عن دراسة الانكليزية إبتداء من شعر ملتون المحكم. ودعا كاتبها الى تغيير النظام الآثاري بالابتداء من قصيدة (القبر) التي كتبت في القرن الحادي عشر، بلغة يومية إعتيادية، ثم بعد ذلك العودة إلى الأصول. وفيما يخص بيوولف كانت تكفي بعض المقتطفات المملة مما يزيد على ثلاثـة آلاف بيت - مثلاً الطقوس الجنائزية لـ(شيلد) الذي جاء من البحر وعاد الى البحر. ولم يكن إسم ونثروب مذكوراً في المقالة، لكنه شعر بأنه المقصود من هذا الهجوم غير المعلن. ولم يهمّه هذا بقدر ما أهمّه الطعن بمنهجه في التدريس.

بعد ذلك بعدة أيام. ولكي يكون ونثروب منصفاً، لم يسمح لمقالة أينارسن التي أصبحت موضـع تعليقات واسعة أن تؤثر في قراره. وقد سبّب له الخيار بين لوك والأيسلندي أكثر من مشكلة. تحدث ونثروب مع لي روزنتال، رئيس القسم، ذات صباح، وفي نفس الظهيرة تم تنسيب أينارسن رسمياً للقيام بالرحلة الى وسكونسن.

مساء يوم رحيله، ذهب أينارسن الى مكتب أزرا ونثروب. كان عليه أن يودعه وأن يشكره. كانت إحدى النوافذ مفتوحة على شارع تنتظم الأشجار على جانبيه، وقد أحاطت رفوف الكتب بالرجلين. وسرعان ما انتبه أينارسن الى الطبعة الأولى من الـ «إيدا الأيسلنـدية» مجلدة بورق الـرق. فأخبره ونثروب أنه كان واثقاً من قيام

أينارسن بمهمته على أحسن وجه، وأنه لم يقم بشيء يستحق الشكر. وقد طالت مناقشتهما، إذا لم تخني الذاكرة.

قال اينارسن: «لنتحدث بصراحة. الكل يعرف أنّ تشريفي بتمثيل الجامعة، قد قام به روزنتال بتوصية منك. وأنا مدرس جرماني جيد، وسأبذل قصارى جهدي حتى لا أخيبه. إنّ لغة طفولتي هي لغة الأساطير الأيسلندية، وأنا ألفظ الأنغلوسكسونية خيراً من زميلي البريطاني. وتلاميذي ينطقون الانغلوسكسونية على أحسن وجه. وهم يعلمون أن التدخين ممنوع منعاً باتا اثناء محاضراتي، وأنهم لا يستطيعون أن يلبسوا ملابس الهيبيين. أمّا منافسي الذي لم يحالفه النجاح، فقد كان ممّا يجانب الذوق أن أنتقده. وقد أظهر في كتابه ليس فقط بحثه في المصادر الأصلية، بل أيضاً كل ما يتعلق بـ«مايسنر» و «ماركوارت». ولكن فلنترك هذا الهراء جانباً. يتوجب عليّ أن أوضح لك توضيحاً شخصياً».

صمت أينارسن، ونظر خارج النافذة ثم قال:

«لقد تركت بلدي عند نهاية ١٩٦٤. وعندما ينوي المرء أن يهاجر الى بلد بعيد، فإنه يفرض على نفسه فرضاً ضرورة التقدم المتواصل في ذلك البلد. ولقد أردت من أول عملين كتبتهما، وكانا عملين فيلولوجيين إظهار قدرتي والكشف عنها. وواضح أن ذلك لم يكن كافياً. فقد كنت دائماً مهتماً «بمعركة مالدوز»، التي أستطيع أن أرددها عن ظهر قلب دون أن أرتكب فيها خطأ يذكر. وقد نجحت في إقناع جامعة ييل بطبع كتابي عنها. والقصيدة كما تعلم تسجل الانتصار النرويجي، أمّا فيما يخص تأثرها بالاساطير الأيسلندية المتأخرة فأنا أرى أن ذلك افتراض غير مقبول وعبث لا جدوى منه. وقد ألمحت الى هذا لأرضي غرور القراء الناطقين بالانكليزية فقط».

إستمر الأيسلندي بالتحديق الى ونثروب:

«نصل الآن إلى زبدة الموضوع، أي القطعة الجدلية التي كتبتها في المجلة الفصلية. وهي كما تعلم تبرر أو تحاول أن تبرّر مذهبي الفكري، لكنها تبالغ في التصدي لمنهجك الذي يكلف الطالب عناء مراجعة ثلاثة آلاف بيت من الشعر العسير الذي يروي قصة مرتبكة، والذي يجره الى فهم عدد كبير من المفردات تاركاً له فرصة الاستمتاع - إن لم يتوقف عن ذلك حينئذ - بالمجموعة الكاملة من الأدب الأنغلوسكسوني. لقد كان هدفي الحقيقي هو الذهاب الى وسكونسن. وأنت وأنا،

يا صديقي العزيز نعلم أنّ هذه المؤتمرات غبية وأنها تستلزم تكاليف حمقاء. ولكنها لا تخلو من نفع وظيفي».

نظر إليه ونثروب مندهشاً. كان الإنكليزي الجديد رجلاً ذكياً، وكان يريد أن يأخذ الأمور مأخذ الجد بها في ذلك المؤتمرات والعالم، وهو ما قد يكون نكتة كونية.

واصل أينارسن القول: «لعلك تتذكر حوارنا الأول. لقد وصلت إلى نيويورك يوم أحد. وكانت مطاعم الجامعة مغلقة، فتناولنا طعامنا في مطعم «نايتهوك». من ذلك اللقاء تعلمت الشيء الكثير. وبوصفي أوروبياً طيباً، فقد كنت أفترض دائماً أن الحرب الأهلية الأمريكية كانت حملة عنيفة ضد ملاك العبيد. وكنت أنت قد ذكرت أنّ الجنوب من حقه أن يرغب في الانسحاب من الاتحاد وأن يحتفظ بدستوره الخاص. ولكي تعزّز ما كنت تقوله قلت لي أنك شمالي، وأنّ أحد أسلافك في تلك الحرب في صفوف هنري هالك. وامتدحت شجاعة الاتحاديين، إن لي حاسة تمييز غير اعتيادية في التقييم الفوري، وكان ذلك الصباح كافياً لي. أدركت يا صديقي ونثروب أن نزعة الأمريكان الغريبة في النزاهة تسيطر عليك، وأنك تريد قبل كل شيء أن تكون صافي الذهن. فقط لأنك شمالي تحاول أن تفهم وأن تبرّر قضية الجنوب. وما إن علمت أن رحلتي الى وسكونسن تتوقف على ما تقوله لروزنتال حتى دفعت الفصلية لنشر مقالتي عارفاً أن أفضل السبل للحصول على اختيارك هو نقد منهجك في التدريس».

خيّم صمت طويل، ثمّ قطعه ونثروب:

«إنني صديق قديم لهيربرت، وأقدر عمله، وقد هاجمتني هجوماً مباشراً أو غير مباشر. ولعل عدم ترشيحي لك سيكون نوعاً من الأخذ بالثأر. لقد فاضلت بين كفاءتيكما وأنت تعرف النتيجة».

ثم أضاف وكأنه يفكر بصوت عالٍ:

«ربما تخليت عن خيلاء الثأر لنفسي. وكما ترى فقد أفلحت حيلتك».

أجاب أينارسن:

«الحيلة كلمة مناسبة، بيد أني لست بآسف على ما فعلت.سأتصرف دائماً بما فيه مصلحة القسم، مهما كان الثمن فقد أردت الذهاب الى وسكونسن».

قال ونثروب وهو ينظر في عيني إينارسن:

«يا أول فايكنغ لي».

«خُرَافة رومانسية أخرى، لا يكفي أن تنحدر من أصل اسكندنافي لكي تكون من الفايكنغ. لقد كان أجدادي قساوسة مخلصين في الكنيسة البروتستانتية، وربّما كان أسلافي في مطلع القرن العاشر كهنة مخلصين لـ «ثُور». وليس في عائلتي فلاحون أبداً بقدر ما أعلم».

«هناك الكثير منهم في عائلتي. ولكننا مع ذلك لسنا مختلفين جداً. خطيئة واحدة نشترك بها هي الخيلاء. لقد قمت بهذه الزيارة لكي تتباهى بحيلتك الذكية، وكان رديّ التباهي بأنني رجل مستقيم».

قال أينارسن:

«ثمة شيء آخر نشترك به أيضاً الا وهو الجنسية، إنني مواطن أمريكي، ومصيري هنا، وليس في واق الواق[1]. وجواز السفر لا يغير جوهر الانسان».

ثم تصافحا وودّعا بعضهما.

(١) التعبير في الأصل (Ultima Thule) وهو تعبير استعمله الرومان للاشارة الى أبعد أرض ممكنة أو الارض التي يستحيل الوصول اليها. (المترجم).

القرص

أنا حطاب، وليس اسمي بمهم. والكوخ الذي ولدت فيه، والذي سأموت فيه يقع بمحاذاة الغابة.

يقال عن الغابة أنها واسعة سعة البحر الذي يحيط بالارض كلها، وأنها تنتشر فيهـا الأكواخ الخشبية مثل كوخي. لم يسبق لي أن رأيت ذلك البحر، ولا رأيت الجانب الآخر من الغابة. وعندما كنا في ميعة الصبا، أقسمنا أنا وأخي أن نجتث الغابة من أولها حتى آخر شجرة فيها. ولكن أخي مات. فاختلف ما أبحث الآن، ومـا سأستمر في البحث عنه. والى جهة الغرب يجري جدول صغير أعرف كيف أصطاد فيه السمك بيديَّ. في الغابة توجد ذئاب كثيرة، ولكن الذئاب لا تخيفني. ولم تخذلني فأسي أبداً.

لم أفكر أبداً بعدِّ سنوات عمري، فأنا أعلم أنها كثيرة. وقد ضعف بصري، حتى اشتهـرت بالبخل في القـرية، لأنني لا أغامر بالذهاب اليها حتى لا أضلّ طريقي. ولكن أي كنز يستطيع حطاب فقير أن يكتنز؟

تعودت أن أغلق باب كوخي بحجر، حتى لا ينفذ الثلج الى داخله. ذات مساء قبل فترة طويلة، سمعت وقع خطى حثيثة تدنو، ثم سمعت طرقاً. فتحت الباب فدخل عليّ غريب. كان شيخاً كبيراً وطويلا يلتحف بدثارٍ بالٍ. وثمة ندبة تسم وجهه. وبدا كما لو أن سنين عمره أضفت عليه سلطاناً بدل الضعف. ولكنني لاحظت أنه لم يكن قادراً على الحراك دون أن يستعين بعكاز. تبادلنا بعض الكلمات التي لا اتذكرها. وفي النهاية قال:

«لا بيت لي آوي اليه، وإنني لأنام حيث أستطيع. وقد جبت أرض السكسون هذه طولاً وعرضاً».

كانت هذه الكلمات متوافقة مع سنه. وكثيراً ما كان أبي يتحدث عن أرض السكسون التي يسميها الناس إنكلترا الآن.

كان معي خبز وسمك. ولم نتفوه بكلمة أثناء الأكل. أخذ المطر بالتساقط، ففرشت له حشية من قطع الجلد على الأرض، في نفس المكان حيث مات أخي. وعندما هبط الليل، أخلدنا للنوم.

حين تركنا الكوخ كان النهار قد بزغ. توقف المطر، واكتست الأرض بالثلج المتساقط حديثاً. وانزلق عكاز صاحبي من يده، فطلب مني أن ألتقطه.

سألته: «ولم يتوجب عليَّ أن أطيعك؟».

أجاب: «لأنني ملك».

ظننته مجنوناً. التقطت العكاز، وناولته إياه فتكلم بصوت مختلف. قال: «إنني ملك «السيكجن». كنت أقود قومي من نصر الى نصر في خضم المعارك. وفي اللحظة المصيرية فقدت مملكتي. إسمي «إسيرن». وأنا من سلالة «أودن».

قلت: «لا أعبد «أودن» بل أعبد المسيح».

واصل كما لو انه لم يسمعني: «لقد أوغلت في المنفى، ولكنني ما أزال ملكاً، لأن معي القرص. هل تريد أن تراه؟».

فتح راحة يده النحيلة، ولم يكن فيها شيء. فتذكرت حينئذٍ أنه كان يبقي على يده مقبوضة دائماً.

قال، وهو يحدق بي «تستطيع أن تلمسها».

لمست بأطراف أصابعي راحة يده بشيء من الارتباك فشعرت بالبرودة، ورأيت لمعاناً. ثم انقبضت يده بشكل مفاجىء. لم أقل شيئاً. واستمر الرجل بنفاد صبر كما لو كان يتكلم مع طفل، قال:

«إنه قرص أودن، وله وجه واحد فقط. ليس في العالم كله شيء سواه بوجه واحد فقط. وسأبقى ملكاً ما بقي معي هذا القرص».

قلت: «هل هو من ذهب؟».

«لا أعرف. إنه قرص أودن، وله وجه واحد فقط».

عندئذ غلب عليَّ الطمع في أن أمتلك القرص. لو كان ملكي لتمكنت من مقايضته بسبيكة ذهبية وصرت ملكاً. قلت للشريد الذي ما كففت عن كرهه حتى الآن: «لقد دفنت في كوخي صندوق قطع ذهبية، وإنها لتلمع لمعان الفأس. لو

أعطيتني قرص أودن، لقايضتك به ذلك الصندوق».

قال بعناد: «كلا، لا أريد ذلك».

قلت: «إذن فستواصل تطوافك!».

أدار لي ظهره. كانت ضربة واحدة بالفأس على ظهر عنقه أكثر من كافية لإسقاطه أرضاً. وما إن سقط حتى انفتحت راحته فرأيت لمعانا في الهواء. أشرت إلى موضع سقوط القرص بفأسي، وسحبت الرجل الميت الى النهر الذي كان سريع الجريان. وهناك القيته فيه.

حين عدت الى الكوخ فتشت عن القرص ولكنني لم أجده، ومنذ سنوات عديدة، وأنا ما أزال أبحث عن ذلك القرص.

كتاب الرمل

يتكـوّن السطر من عدد لا متناهٍ من النقاط، والسطح من عددٍ لا متناهٍ من السطور، والكتاب من عددٍ لا متناهٍ من السطوح، والمدوّنة من عددٍ لا متناهٍ من الكتب . . . لا . . . لا ريب أنّ هذه البداية الهندسية ليست أفضل الطرق لابتداء قصتي. فالمتبـع في هذه الأيام أن تدعي عند مفتتح كل قصة موضوعة أنها قصة حقيقة. ومع ذلك فإن القصة التي أرويها هنا حقيقة فعلاً.

أعيش بمفـردي في الـطابق الـرابع من شقة في شارع «بلغرانو» في «بوينس آيريس». ذات مساء، قبل عدة شهور، سمعت طرقاً على الباب. فتحته ووجدت أنّ غريباً يقف وراءه. كان رجلاً طويلاً بملامح لا توصف. . أو ربّما كان ضعف بصري السبب في ظهـوره بذلك المظهر. كانت ثيابه رمادية، وكان يحمل حقيبة رمادية في يده، وقد نمّت هيأته عن فقر لا تبذل فيه.

لاحظت على الفور أنه أجنبي. في البداية توهمته كبيراً في السن وفيما بعد فقط تبينت أنّ شعـره الأشقـر المتفـرق قد ضللني. كان شعـره مرتبـاً على الـطريقـة الأسكـنـدنـافية، وقـد وخطه البياض. وفي سياق نقاشنا الذي لم يستغرق ساعة إكتشفت أن جاء من «أور كنيز».

دعوته للدخول، وأشرتُ الى كرسي. صمت للحظة قبل أنه يتكلم. كانت مسحة من الكآبة تفيض من وجهه، كما تفيض الآن من وجهي.

قال: «إنني أبيع الأناجيل».

أجبت بشيء من التحذلق:

في هذا البيت العديد من الأناجيل الإنكليزية، بما في ذلك إنجيل «وِيكلِف».

وعندي أيضاً إنجيل سبيريانو دي فاليرا وإنجيل لوثر ـ الذي هو من وجهة النظر

الأدبية أسوأ الأناجيل ـ ونسخة لاتينية من فولغيت. وكما ترى فإن ما يعوزني ليس الأناجيل بالضبط.

بعد لحظات من الصمت قال: «لست فقط أبيع الأناجيل أستطيع أن أعرض عليك كتاباً مقدساً عثرت عليه صدفة في ضواحي «بيكانر» وقد يفيدك». فتح الحقيبة، ووضع الكتاب على المنضدة. كان مجلداً بقطع الثُمْن، مغلفاً بالقماش. وليس ثمة شك في أنه تنقل كثيراً بين الأيدي. وقد أذهلني، وأنا أتفحصه، وزنه غير الاعتيادي. كان مكتوباً على ظهره (سفر مقدس) وأسفل ذلك (بومبي) قلت: «ربّما كان من القرن التاسع عشر».

قال: «لا أعرف، لا أعرف عنه شيئاً على الاطلاق».

فتحت الكتاب عشوائياً. كان الخط غريباً عليَّ. الصفحات البالية والبائسة في طريقة كتابتها كانت منضودة في أعمدة ثنائية كما لو في إنجيل. وكان النص محتشد الأسطر، ومنظوماً على شكل أبيات شعرية. وفي أعلى زاوية الصفحة كانت الأرقام عربية. لاحظت أن الصفحة اليسرى تحمل الرقم (لنقل أنه) ٥١٤ر٤٠، وأن الصفحة المواجهة تحمل الرقم ٩٩٩. قلبت الورقة كانت مرقمة بثمانية أرقام، وتحمل رسماً صغيراً مثل رسوم المعاجم ـ كانت ثمة مرساة مرسومة بقلم حبر، كما لو أن صبياً أخرق هو الذي رسمها.

وهنا قال الغريب «أنظر الى الرسم بإمعان. فلن تراه مرة أخرى». نظرت حولي وطويت الكتاب. ثم فتحته ثانية. ودون طائل بحثت عن رسم المرساة صفحة بعد صفحة.

قلت لأخفي فزعي «يبدو أنه نسخة من الكتاب المقدس بإحدى اللغات الهندية، أليس كذلك؟».

أجاب: «لا»، وكما لو أنه يفشي سراً خفض صوته.

«لقد حصلت على الكتاب في إحدى قرى السهل، بمقايضته بحفنة من الروبيات وإنجيل. لم يكن صاحبه يعرف القراءة. وأشك في أنه رأى في كتاب الكتب طلسماً. لقد كان من الطبقة السفلى. ولم يكن في وسع أحد أن يطأ ظله دون أن يتلّوث. أخبرني أن كتابه كان يسمّى كتاب الرمل، فليس للكتاب ولا للرمل أية بداية أو نهاية».

طلب مني الغريب أن أجد الصفحة الأولى.

وضعت يدي اليسرى على الغلاف وفتحت الكتاب، محاولا أن أضع إبهامي على الورقة البيضاء الأولى. ولكنه كان جهداً بغير طائل. في كل مرة حاولت كان عدد من الأوراق يفصل بين الغلاف وإبهامي. وبدا كما لو أن الأوراق تتناسل وتنمو من الكتاب.

«الآن حاول أن تجد الصفحة الأخيرة».

مرة أخرى فشلت. وبصوت ليس صوتي تلعثمت: «لا يمكن هذا».

متحدثاً بالصوت الخفيض نفسه قال الغريب: «لا يمكن، ولكنه موجود. فعدد أوراق هذا الكتاب لا متناهية لا أقل ولا أكثر. لا توجد صفحة أولى. ولا توجد صفحة أخيرة. ولا أعرف لماذا هي مرقمة هذا الترقيم الاعتباطي. ربّما للقول بأنّ حدود السلسلة اللامتناهية تقبل أيّ عدد».

ثمّ قال وكأنه يفكر بصوت عالٍ: «لو كان المكان لا متناهياً، لكنا في أية نقطة في المكان. ولو كان الزمان لا متناهياً، لكنا عند أية نقطة في الزمان».

أثارتني تأملاته. سألته: «لا شك أنك متدين؟».

«أجل إنني مشيخي★. وضميري مطمئن. فأنا على ثقة بأنني لم أخدع ذلك المواطن عندما قايضته كلام الله بكتابه الشيطاني هذا».

أكدت له أنه لم يفعل ما يلام عليه. وسألته ما إذا كان مجرد عابر بهذا الجزء من العالم. فأجاب بأنه كان يخطط للعودة الى وطنه في غضون أيام قليلة. ثم علمت فيما بعد أنه كان اسكتلندياً من جزر «أوركني». أخبرته بأني شخصياً متأثراً بإسكتلندا تأثراً عظيماً من خلال حبي لـ «ستيفنسون» و «هيوم».

صحح لي: «تعني ستيفنسون وروبي بيرنز».

وبينما كنا نتحدث كنت أستكشف الكتاب اللامتناهي. وبلا مبالاة مصطنعة سألته: «هل في نيتك أن تقدم هذا الشيء الغريب إلى المتحف البريطاني؟».

قال: «لا بل أقدمه لك» ثم طلب مبلغاً كبيراً جداً للكتاب.

أجبت صادقاً كل الصدق أن لا طاقة لي بهذا المبلغ، واستغرقت في التفكير. وبعد دقيقة أو دقيقتين عرضت عليه عرضاً قلت:

«أقترح أن نتقايض. لقد حصلت على هذا الكتاب بحفنة من الروبيات ونسخة من الانجيل. وأنا سأقدم لك صك معاشي الذي استلمته تواً. ونسختي من

★ تابع للكنيسة المشيخية التي لا تعترف بالأساقفة.

إنجيل «ويكليف» مطبوعاً بحروف غوطية. لقد ورثته عن أسلافي».

تمتم مع نفسه «إنجيل بحروف غوطية».

ذهبت الى غرفة نومي، وأحضرت النقود والكتاب. قلّب أوراقه وتمعن في صفحة الغلاف بحماسة عاشق كتاب أصيل.

قال: «اتفقنا».

لقد أذهلني أنه لم يساوم. وما كنت لأعرف إلاّ مؤخراً أنه دخل بيتي وقد عزم على بيع الكتاب. ودون أن يحسب النقود وضعها في جيبه.

تحدثنا عن الهند، وعن «أوركني» عن النبلاء النرويجيين الذين حكموها. وكان الليل قد جنَّ عندما غادر. ولم أره مرة أخرى، ولا عرفت اسمه أبداً.

فكرت في حفظ كتاب الرمل على الرف في الفراغ الذي خلّفه إنجيل ويكليف. لكنني في النهاية قررت أن أخفيه خلف مجموعة مجلدات غير كاملة من الف ليلة وليلة. ذهبت الى الفراش ولم أنم. في الثالثة أو الرابعة صباحاً، أشعلت الضوء. أنزلت الكتاب المستحيل وقلبت صفحاته.

في إحدى الصفحات رأيت قناعاً محفوراً. وكانت الزاوية العليا تحمل رقماً لا أتذكره.

لم أعرض كنزي على أحد. وإلى جانب حسن الحظ في امتلاكه أضيف الخوف من تعرضه للسرقة، ثم التحوط من احتمال أن لا يكون لا متناهياً. هذان القلقان قوّيا فيَّ بغضي القديم للجنس البشري. ولم يكن قد بقي لي من الأصدقاء إلا القليل، والآن فقد توقفت عن رؤيتهم. كنت أقضي وقتي كله في البيت حبيساً مع الكتاب. وبعد دراسة ظهره وغلافه المتهرأين بعدسة مكبرة استبعدت احتمال أن يكون منطوياً على أية حيلة من أي نوع. الرسوم الصغيرة، كما تحققت من ذلك، تباعدت عن بعضها الفي صفحة. شرعت بإلصاقها أبجدياً في دفتر لم يلبث أن امتلأ. ولم يتكرر أي رسم. وفي الليل، أثناء فواصل النوم الضئيلة التي قطعت الأرق، كنت أحلم بالكتاب.

جاء الصيف وذهب. وأدركت أن الكتاب كان فظيعاً. وما جدوى أن أفكر، انا الذي أنظر إلى الكتاب بعيني، وأمسكه بين يدي، أنني لم أقل فظاعة عنه؟ شعرت أن الكتاب كان موضوعاً كابوسياً، أو شيئاً قبيحاً يتحدى الواقع نفسه ويشوهه.

فكرت بإحراقه، لكنني خشيت إحراق كتاب لا متناه قد يخنق الكوكب بدخان لا ينتهي. وتذكرت أنني قرأت في مكان ما، أنّ خير مكان لاخفاء ورقة هي الغابة.

قبل التقاعد كنت أعمل في شارع مكسيكو في مكتبة الأرجنتين الوطنية، التي تضم تسعمائة ألف مجلد.

كنت أعرف أنّ على يمين المدخل درجاً منحنياً يؤدي إلى سرداب، حيث تحفظ الكتب والخرائط والدوريات. في يوم ما ذهبت الى هناك، وأنا اتخفى عن أنظار العاملين، ودون أن أعرف على أي ارتفاع من الباب أو أي بعد عنه، ضيعت كتاب الرمل في زحمة الرفوف التي جللها الغبار. شعرت بشيء من الراحة.. لكنني لا اريد أبداً أن أخترق شارع مكسيكو ثانية.

خورخي لويس بورخيس

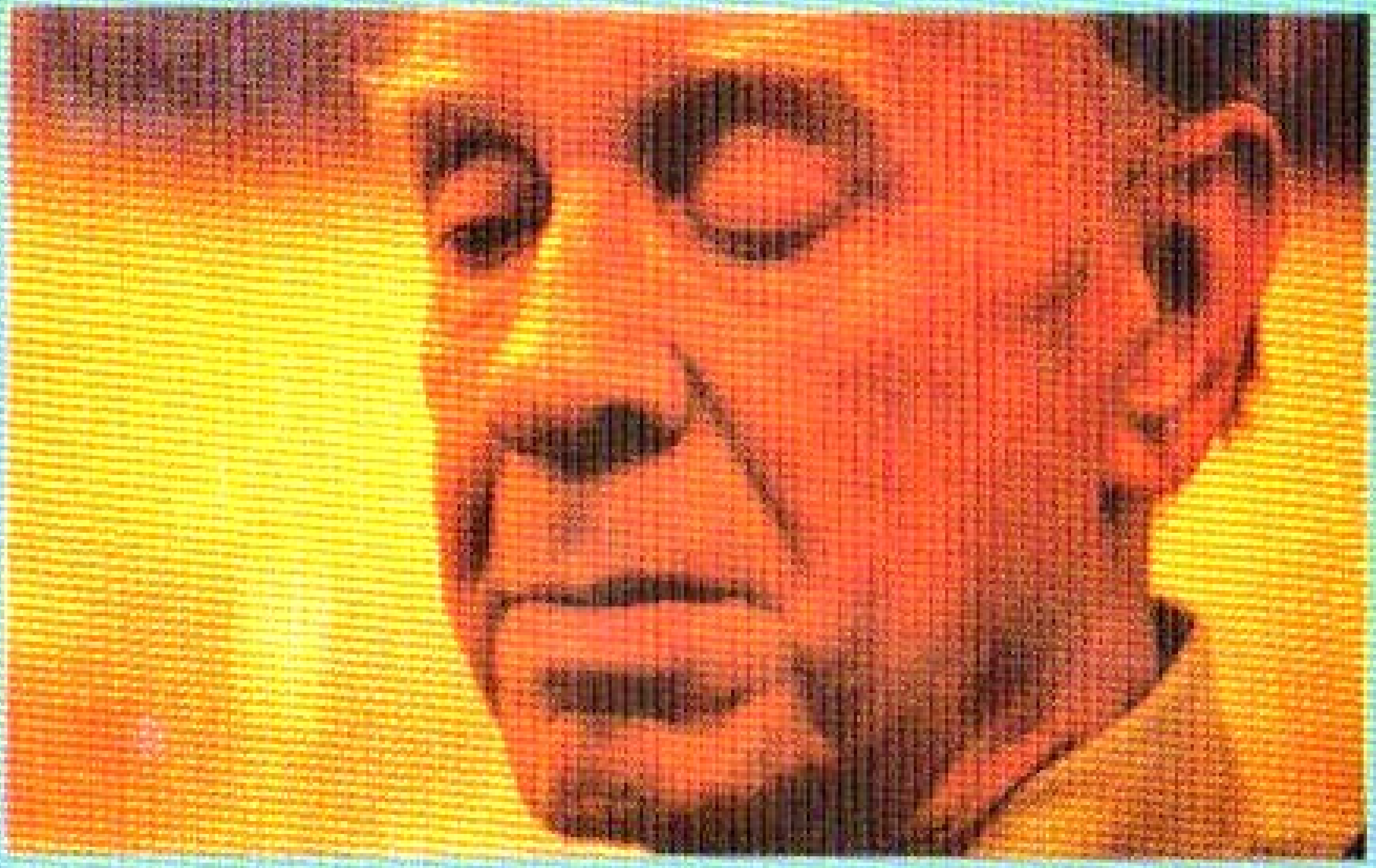

عن الكاتب:

- « كان بورخيس أحد كبار الكتّاب في زماننا، وأحد سادة اللغة الإسبانية»

ارنستو ساباتو

- «في آثاره خيال مضاعف، خيال العالم الجديد. أما مضامينه فتتخذ نقطة انطلاقها من أننا محكومون بالعبثية».

كارلوس فوينتس

عن كتابته :

- « أكتب لنفسي ، وأكتب لأصدقائي، وأكتب كي أخفف من عبء مرور الزمن»

كتاب الرمل

في هذا الكتاب نطالع أهم القصص التي صنعت شهرة بورخيس وبوأته تلك المكانة الرفيعة في عالم الأدب.

إن بورخيس هنا يتأمل، ويسائل ويغرز مسباره عميقاً في معنى الزمن والواقع والفكر، معيداً تشكيل العالم عبر رؤياه هو، الفنان والحالم والمفكّر، متجاوزاً مظاهر الأشياء التي كان يؤمن أن مهمة الأدب تنحصر في تعريتها، والقبض على جواهرها.

للنشر والتوزيع

تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤ • ص. ب: ٩٥٠٢٥٢ ، عمّان ١١١٩٥ الأردن

ISBN 9957-09-009-7 (ردمك)